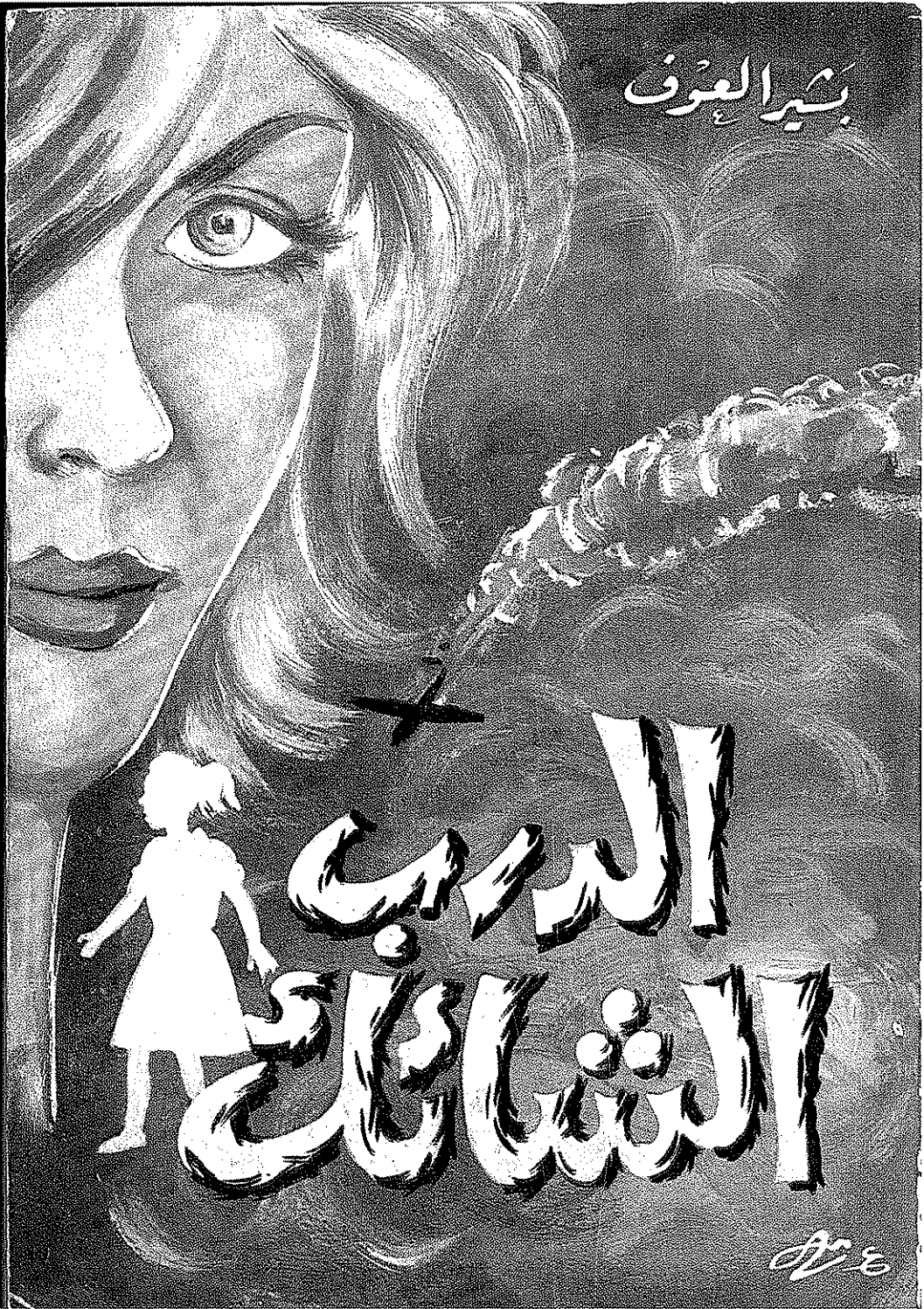

بشير العوف
الدرب
الشائك

الدَّربُ الشائكُ

بشير العوف

الدرب الشائك

قصة اجتماعية تحليلية

من الحي اللاتيني في باريس

الناشر
دار الفتح للطباعة والنشر
صندوق بريد ٤٢٩٥ - بيروت

الطبعة الاولى { ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

أهم أشخاص القصة

مادلين رينو : فتاة رائعة الجمال ، نشأت في احضان اليتم ، تزوجت ابن عمتها ، اتهمت بقتل ابنتها كلير .

الفريد فيشار : ابن عمة مادلين رينو وزوجها ووالد الطفلة كلير .

جورج سارتر : صحفي جريء مندوب جريدة لومونه الفرنسية ، رافق سير الدعوى حتى النهاية .

فيليب شار : طبيب شاب ، احب مادلين ، وطلب يدها فأبت ، اول من أنبأ عن وقوع الجريمة .

فرانسوا مارتين : المدير الفني لمحلات الخياط النسائي الشهير «فيكتور لوبلان» ، عشيق مادلين رينو وزوج جوزفين دامار .

جوزفين دامار : صبية جميلة ، زوجة فرانسوا مارتين اتهمت بقتل الطفلة كلير فيشار .

جان ميشيل : قاضي التحقيق الجنائي ، متمرس بعمله بعيد الحنكة والدراية .

بيير ميلر : المحامي القدير الذي تولى مهمة الدفاع بنجاح قوي .

هيلين دافيد : خادم عجوز في بيت مادلين رينو ، تؤدي عملها بحب وبراءة واخلاص .

الفصل الأوّل

في الحيّ اللاتيني

١

كان ذلك ، ضحى اليوم الثالث من شهر مايس (ايار) ١٩٥٨ ، حينما كانت جموع غفيرة من الاهلين ، متجمهرة في منعطف صغير من منطقة « الكارتييه دو لاتان » الحي اللاتيني في باريس ، ترتقب نتيجة مجهود رجال الشرطة ، الذين تحلقوا بسياراتهم وأسلحتهم حول احد المنازل ، وراحوا يسدون منافذه ومداخله ، بينما تقدم سبعة منهم الى الباب الرئيسي للمنزل وبيد كل منهم رشيشه المعد لاطلاق النار ، ويده على زناده ، لمبادهة كل حركة مضادة .

تقدم الضابط المختص ، وقرع الباب قرعا عنيفا ، ويده اليمنى على مسدسه ، استعدادا للطوارىء ، وكأنه كان يتوقع ــ كما كان يتوقع معه جمهور الناس ــ ان يضطر بعد لحظات ، الى اطلاق النار ، وتحطيم الباب ، ثم الدخول الى المنزل عنوة ، وبالسلاح المشهور .

لكن شيئا من هذا لم يقع ، لان الباب فتح من الداخل ، بمجرد القرع العنيف الاول ، فدخل الضابط ورجاله الى المنزل ، ولبثوا داخله بعض الوقت بينما ظل رجال الشرطة ، محيطين بالمنزل من جميع جهاته ، كما ظل الناس على كثرتهم ، متجمهرين متسائلين ...

وبعد ساعة او أكثر من ساعة ، خرج رجال الشرطة من المنزل ، ومعهم فتاة تبلغ العشرين من عمرها ، لم ينتقص القيد الحديدي الذي وضع في يديها ، شيئا من فتنتها الرائعة وجمالها الاخاذ ، وبينما كانت منكسة الرأس ، بادية الهم ، كان شعرها الاشقر الطويل منسدلا على كتفيها ، لينطق بآية فتنتها ، كما كان جسمها الفتي ، مكتمل الانوثة فارع القوام ، يحاول ان يتحدى القيد ، فلا يقوى على ذلك ، لأن الرأس المنكس والعين التي تسح بالدمع ، والشعر الاشقر المنسدل المضطرب المعفّر ، قد دل على أن وراء هذه الفتنة ، حادثا جللا ، اوجب وضع القيد الخشن في مكانه من معصمي الفتاة ، وأمرا خطيرا دعا لسوق هذه الحسناء الفاتنة الى ساحة القضاء .

ومع صفير الجماهير ، وبين يدي غمز ولمز وتساؤل ، كان ينطلق من عيون الناس وافواههم ، صعدت الفتاة الى احدى سيارات الشرطة ، فارتمت على مقعدها ، وارتمى رأسها على كتفها ، فشاع من عينيها الحالمتين ، ذهول ويأس وألم ، ابكى القلوب ، وأدمى المحاجر .

وبين يدي الوجوم الذي سيطر على جو الحي اللاتيني كله ، سمع الناس صوت سيارة الاسعاف البيضاء ، تشق صفوف الجماهير ، بصليبها الاحمر الجريح ، فأفسحوا لها الطريق ، كي تقف امام سيارة الشرطة ، حيث ترجّل منها اثنان من رجال الصحة ، ومعهما ممرضة نشيطة ، فدخلوا الى المنزل برفقة بعض رجال الشرطة ، وعادوا يحملون على المحفّة الخاصة جثة صغيرة مغطاة بقماش أبيض ، وضعوها في مكانها من سيارة الاسعاف .

ومع انطلاق السيارتين سيارة الشرطة ، وفيها الفتاة الجميلة المقيدة ، وسيارة الاسعاف ، وفيها الجثة الصغيرة المجهولة ، كانت تنطلق في أثرهما سيارة ثالثة اخرى تشق طريقها وسط الجماهير ، وتلاحق السيارتين الماضيتين ، بجرأة ومهارة ، فصفق لها الناس ، وبادروها بالتحية وافساح الطريق ، لانها كانت سيارة الصحفي

الكبير « جورج سارتر » مندوب جريدة « لوموند » الذي عرف بتتبعه للحوادث واكتشاف ما خفي منها ودق ، لوضعه بين يدي قرائه ، على صفحات جريدته صباح كل يوم .

وعلى هذا توقع الناس ان يقرأوا صبيحة اليوم التالي انباءا دسمة مسهبة عن قصة البائسة الفاتنة ، او الجثة المجهولة ، بما فيها من خفايا وملابسات .

سارت السيارات الثلاث ، يتبع بعضها بعضا ، حتى وصلت الى ميدان « الكونكورد » ، وهناك اخذت سيارة الشرطة طريقها متجهة الى شارع « الشانزليزيه » بينما انحدرت سيارة الاسعاف جنوبا ، متجهة الى القسم الجراحي في مستشفى الجامعة .

لم يكن آنئذ ، امام الصحفي « جورج سارتر » الا ان يختار احد طريقين اما ان يتبع سيارة الشرطة ليحصل على اسرار الفتاة المقيدة بالحديد ، وهي بين يدي اللحظات الاولى من اعتقالها ، واما ان يتبع سيارة الاسعاف ليكتشف سر الجثة المجهولة ، التي اخذت طريقها الى قسم الجراحة .

٢

آثر الصحفي سارتر ان يتبع سيارة الشرطة ، فسار خلفها بسرعة جنونية ، حتى زاملها امام قصر العدل ، وهناك توقفت السيارتان حيث ترجل رجال الشرطة من سيارتهم ، واخذوا يساعدون الفتاة المتهالكة المرتعشة ، على مغادرة السيارة الى غرفة النيابة العامة في القصر ، بينما كان جورج سارتر يتأبط ذراعها الايسر وهو يتأمل جمالها الساحر ، الذي لا يظن رائيه بان وراء فتنته شيئا غير البراءة والطهر والعفاف .

وبعد لحظات قصار كانت الفتاة المقيدة تلج قاعة كبرى ، تصدرها قاضي التحقيق « البروفسور جان ميشيل » وما خطت فيها بضع خطوات حتى اضطرب مشيها ، وتهالك جسمها فارتمت

على اقرب مقعد اليها ، حيث بادرها على الفور قاضي التحقيق ، بعينين لمع فيهما بريق الحنان والعطف ، ثم تقدم اليها ، وامر بفك قيودها ومسح بيده على رأسها ، ووجه لها كلمات حلوة ، بعثت في نفسها الشيء الكثير من الثقة والاطمئنان ، وبعدها طلب لها كأسا من عصير البرتقال ، فوجدت هذه البائسة بين يدي القاضي الكبير نعمة الحنان الابوي ، فاستسلمت اليه راضية مطمئنة ، وحينما سألها عن اسمها ، اجابت بهدوء : « مادلين رينو » ثم رفعت رأسها ، واجالت بصرها في انحاء القاعة ، فاذا بهذا البصر الحزين يتسمَّر في اللوحة الكبرى الموضوعة في صدر القاعة ، وقد ارتسم عليها شعار العدالة ، وهو رسم ميزان له كفتان متعادلتان بينهما كتاب مفتوح ، وتحتهما كلمة « عدل » تسمَّر بصرها عليها ، وفي أقل من لحظة ، ارتمى رأسها على كتفها ، وكاد ان يرتمي جسمها على الارض لو لم يتداركه القاضي ميشيل ، والصحفي سارتر ورجال الشرطة الذين حالوا دون وقوعها على الارض ، ولم يحولوا دون وقوعها في غيبوبة فقدت معها وعيها وحسها ، فمددها رجال الشرطة على منضدة قريبة ، ومسحوا وجهها بالماء البارد ، بينما ذهب احدهم مسرعا الى الهاتف لاستدعاء الطبيب .

حضر الطبيب على الفور ، فأجرى للسيدة مادلين ، الاسعافات الضرورية ، ثم قرر انها مصابة باعياء شديد يهدد حياتها بين لحظة واخرى ، لهذا كان لا بد من توفير الراحة التامة لها ، فأمر القاضي ميشيل بنقلها الى مستشفى السجن ووضعها تحت الرقابة الدائمة ، مع الحيلولة دون تعرضها لاية صدمة طارئة ، قد تؤثر على راحتها ، او ... حياتها .

اعتقد جورج سارتر ان مهمته الصحفية بالنسبة للسيدة مادلين قد انتهت اليوم عند هذا الحد ، فترك قصر العدل ، وسارع الى سيارته متجها نحو مستشفى الجامعة ليكتشف سر الجثة الصغيرة ، التي حملتها اليه سيارة الاسعاف قبل ساعة واحدة من الزمن .

وبينما كان منطلقا بسيارته في شارع « الشانزلزيه » فجأته سيارة رعناء ، كانت تخالف انظمة السير ، وتحاول ان تدور في مكان لا تجوز فيه استدارة السيارة ، ومع سرعتها وسرعة سيارة سارتر ، اصطدم مقدم سيارة سارتر بمؤخرة السيارة الرعناء فاصابها بعطب شديد ، كسر معه زجاج النوافذ والابواب ، وشوهد سارتر مضرج الرأس والوجه بالدم ، وقد شج رأسه بقطعة زجاج قاسية ، فتعطلت حركة المرور فترة قصيرة ، وصلت على اثرها سيارة الاسعاف ، التي حملت الصحفي الجريح الى المستشفى ، وبناء على طلبه كان ايضا (مستشفى الجامعة) أملا بحصوله على تضميد جرحه ، مع متابعة القيام بواجبه الصحفي ، في اكتشاف سر الجثة الصغيرة .

وصل جورج سارتر الى المستشفى ، وكان بوده ان يهمل جرحه ليتابع البحث الصحفي حول الجثة ، ولكن الطبيب أرغمه على الاستسلام لعملية الاسعاف والتضميد فأذعن غير راض ، وقضى أكثر من ساعة ممددا على منضدة ، ثم نهض وعلى رأسه ضماد كبير ، اشتمل على شيء من جبينه ووجهه ، وبينما كان الطبيب يوصيه بالاخلاد الى الراحة التامة ليلته تلك ، كان مصمما في قرارة نفسه على انتزاع اكثر المعلومات من مختلف المصادر ، عن حادثة الحي اللاتيني ، لتقديمها بصورة مسهبة ، الى قراء جريدة « لوموند » مع قهوة الصباح الباكر .

وقبل ان يغادر غرفة الضماد تقدم منه شرطي وطلب اليه مرافقته الى مركز الشرطة ، ليشهد تنظيم الضبط القانوني ، في حادث اصطدام السيارتين ، خصوصا وان صاحب السيارة الرعناء، قد اوقف رهن التحقيق ، اضافة الى ان سيارة سارتر قد اصيبت بعطب كبير ، لا يجوز التهاون بتقدير قيمته المادية .

كان جورج سارتر ، ذاهلا عن نفسه وعن سيارته امام شغفه بواجبه الصحفي ، فأسقط في يده ، وحاول ان يتخلص من الشرطي بالتوقيع على الاوراق التي يحملها اليه ... ولكن ...

٣

اجل ... كان جورج سارتر ذاهلا عن نفسه وعن سيارته ، امام شغفه بواجبه الصحفي ، ولا شك بأن موقفه في تلك الساعة كان حرجا ، لان الوقت لا يسمح له بتوزيع مجهوده ، بين حاجات نفسه ، وواجبات مهنتـه ، وبين مطالب الشرطي حيـال ضبط التحقيق وعطب السيارة ، بل ... حيال ذلك الانسان الموقوف على ذمة التحقيق في مركز الشرطة ايضا .

حاول سارتر ان يتخلص من الشرطي ، بمحاولة التوقيع على الاوراق التي يحملها اليه ، أو بتأجيل زيارته مركز الشرطة الى موعد آخر ، فأفاده الشرطي ان هذا قد يكون ممكن التحقيق لو لم يكن هناك انسان محجوز الحرية ، ولا يمكن ان تعود حريته اليه ، الا بعد استكمال جميع النواحي القانونية المتعلقة بتنظيم ضبط الحادث .

رافق الصحفي الشرطي الى المركز ، وهنـاك أسقط حقـه الشخصي في الدعوى ، واما فيما يتعلق بعطب السيـارة ، فقـد أوضح ان شركة التأمين « السيكورتاه » هي المسؤولة عـن ذلك ، وهي صاحبة الحق في ملاحقة القضية من وجهة نظر القـانون . وعلى هذا تم تنظيم الضبط ، كما تم الافراج عن صاحب السيارة الرعناء ، بموجب كفالة قانونية ، ريثما يقول القضاء كلمته .

عاد سارتر الى مهمته الصحفية ، وكله يقين في انه سيقدم الى قرائه انباء كثيرة مثيرة ، عن قضية الحي اللاتيني ، فسارع الى القسم الجراحي في مستشفى الجامعة . وراح يبحث عن اسرار الجثة الصغيرة ، فعلم بسهولة ان هذه الجثة هي جثة ابنة مادلين رينو ، وعندها من العمر اربع سنوات ، ويقال انها ماتت قتلا بيد جانية ، وكل ما لدى مستشفى الجامعة من معلومات يتلخص في ان الطبابة الشرعية في القسم الجراحي ، تلقت أمرا من قاضي التحقيق بوجوب تشريح الجثة لتحديد اسباب الوفـاة ، وتعيين زمانهـا

وطريقتها ، لأن هناك ما ينبيء بوجود جريمة غامضة ، وراء اغتيال هذه الطفلة البريئة .

ومن الغريب ان ينصب الاتهام ، بادىء ذي بدء عـلى والدة الطفلة السيدة مادلين رينو ، فكان لا بد امام رجـال الشرطة من اعتقال الام ، وتسليمها للتحقيق ريثما ينجلي الموقف ، وينكشف سر هذه الجريمة التي لا يعقل فيها ان تقدم أم على قتل طفلتهـا بيدها ، مهما كانت دواعي تلك الجريمة .

ضحكت السيدة مادلين رينو كثيرا حينما فاجأهـا رجـال الشرطة في منزلها وضحكت كثيرا حينما أبلغوها أمرا باعتقالهـا ، لأنها متهمة بقتل طفلتها ، وراحت تسخر منهم أول الامر ، وهي تقول لهـم : « يا هؤلاء .. اخجلوا مـن أنفسكم .. انهـا ابنتي ووحيدتي .. انها مهجتي وفلذة كبدي .. هل يسوغ في أفكاركم وعقولكم ان اماً تقتل ابنتها بيدها مهما كانت الاسباب ..؟! انهـا غرقت في حوض الحمام « البانيو » في غفلة مني وماتت ...»

وحينما رأت مادلين رجال الشرطة جادين في الرغبة باعتقالها، بل مصرّين على ذلك ، اجهشت بالبكاء ، وهي تقول : « اما يكفيني — يا هؤلاء — ثكلي بوحيدتي حتى تفجعوني بأمومتي وحناني ..؟!»

ارادت مادلين رينو ان تقاوم عملية الاعتقال بأيـة وسيلة ، فكان لا بد امام رجال الشرطة ، من استعمال القوة معها ، وكان لا بد من وضع القيد الحديدي في معصميها فقـاومت بشدة ، ثم تلاشت وضعفت ، وبعد ذلك ، انهارت قواهـا ، فسارت معهم منكّسة الرأس ، دامعة العين ، مضطربة الشعر الاشقر المنسدل المعفّر فاقتادها رجال الشرطة بسيارتهم الى قصر العدل ، وهناك في قاعة قاضي التحقيق ، أصيبت باعيـاء شديد ، هدد حياتهـا بالموت ، فنقلت الى مستشفى السجن ، ريثمـا تعود اليها القوة التي تسمح ببدء التحقيق معها .

هذا هو كل ما حصل عليه جورج سارتر من معلومات ، وهي

معلومات تافهة من الناحية الصحفية، فضلا عن ان سارتر لا يرضى لنفسه بأن يقدم لقرائه خبرا عن جريمة غامضة ، يتهم فيه أماً بقتل طفلتها ، دون ان يكون تحت يديه دليل او ما يشبه الدليل ، ولهذا لجأ الى مهارته الصحفية ، وراح يعتمد على نفسه لاكتشاف ما يمكن اكتشافه من اسرار هذه الجريمة ، اذا كان هناك جريمة .

واحس جورج سارتر في قرارة نفسه ، بحافز قوي يدفعه من اعماقه لمتابعة التحقيق في هذه الجريمة ، لا باعتباره صحفيا مؤمنا بواجبه المسلكي فحسب ، بل باعتباره انسانا ترجح عنده ان مادلين لا يمكن ان تقتل طفلتها مهما كانت الاسباب ، كما ترجح عنده ، ان مادلين ليست مجرمة او ما يشبه المجرمة ، بل هي ضحية مؤامرة دبّرت ضدها بليل .

تطوع الصحفي سارتر للبحث عن خيوط القضية ، وراح يسهر لها ويكد ويجد ، وما شك لحظة في انه يسير بخطى موفقة ناجحة .

الفصل الثاني

الطبيب العاشق !

١

بعد تسع ساعات استيقظت مادلين رينو من غيبوبتها العميقة ، وفتحت عينيها فيما حولها ، فبدت عليها الدهشة ، اذ رأت نفسها في غرفة المستشفى ، وعهدها انها كانت في غرفة قاضي التحقيق تنظر الى شعار العدالة الذي كان يزين صدر القاعة ، ولما التفتت الى يمين السرير المسجاة عليه رأت بجانبها ممرضة وقورة حسناء تبتسم لها برقة وعذوبة ، فأنست بها قليلا ، ثم طلبت منها رشفة ماء بارد ، فلبت طلبها بحنان ولهفة ، وبعد ذلك ساعدتها على محاولة النهوض قليلا ، فأسندت ظهرها بوسادة ، ووضعت وراء رأسها وسادة اخرى ، فتنفست مادلين الصعداء . ونفثت من قلبها آهة عميقة ثم تركت مدامعها تسح وتهمي ، فما كان من الممرضة الوقورة الا المبالغة في مواساتها ، وتخفيف ما بها من شؤون وشجون .

قالت السيدة مادلين : أسمعت يا سيدتي بقصتي ؟ انهم يتهمونني بقتل ابنتي ... أتصدقين يا سيدتي هذه الاكذوبة السمجة ؟.. هل يعقل ان تقدم أم على قتل طفلتها ؟

ويل لهم .. وويل لافتراءاتهم الآثمة ، انهم لا يعرفون حنان الام ، ولا يقدرون عاطفة الامومة وهم لو وعوا شيئا من ذلك لما تجرأوا على هذا الافتراء الذميم .

وهنا بدا على مادلين شيء من الذهـول واضطراب الذهن ، فبادرتها ممرضتها بحديث عذب أعاد لها ثقتها بنفسها ، فتابعت مادلين أنسها بممرضتها وراحت تجاذبها اطراف الحديث، وبانطلاق لاشعوري ، سبحت مادلين في أغوار ماضيها ومبدأ حياتها ونشأتها، وراحت تحدث ممرضتها عن امها وابيها واسرتها ، وكيف نشأت في ظلهما الوارف حتى مات ابوها وهي في سن التاسعة من عمرهـا ، وبعده ماتت أمها وتركتها في سن الثالثة عشرة ، فكفلتهـا عمتها ، وكانت سيدة ثرية موفورة الوجاهة والكرامة ، وفي بيت عمتهـا لقيت حياة السعادة والرخاء ، لأنها وجدت الى جانب حنان عمتها وحدبها عليها ، حب ابن عمتها « الفريد فيشار » وغرامه بهـا ، فكانت تبادله حبا عميقا بحب أعمق ، وكانت تقضي معه أحلى ايام حياتها حتى عقد الله عـلى هذا الحب البريء الطـاهر ، برباط الزوجية المقدس ، فاقترنت بابن عمتها«الفريد»ووجدتبالقربمنه، وبرعاية عمتها وحنانها ، كل ما تؤمله الفتاة من حياة مفعمة بألوان السعادة ومباهج الحياة .

اقترنت بابن عمتها « الفريد » حينما كانت على عتبة العام السادس عشر من سني حياتها وأصبحت سيدة هذا القصر ، بما فيه من هدوء ومتعة وجمال .

أصيبت عمتها بمرض وبيل ، كان لا بد معه من اجراء عملية جراحية خطيرة ، لاستئصال ورم خبيث ، وكان لا بد من سفرها الى الولايات المتحدة الامريكية لاجراء هذه العملية ، وكان لا بد من سفر وحيدها «الفريد» معها الى امريكا ،ليكون على مقربة منها اثناء اجراء العملية .

ولأمر قضاه الله وقدّره ، كان من نصيب « الفريد فيشار » ووالدته المريضة ان يكونا في عداد ركاب الطائرة النفـاثة التابعة للخطوط الجوية الفرنسية ، هـذه التي احترقت في السمـاء ، وسقطت في مياه المحيط الهادي ، صباح الثامن عشر من « اكتوبر»

تشرين الاول ١٩٥٤ . ولم ينج من ركابهـا احد ، فكـان من بين ضحاياها الفريد فيشار ووالدته .

وهكذا أصبحت الفتاة الحسناء مادلين رينو ، التي لم تتجاوز بعد عامها السادس عشر ، ارملة حزينة كسيرة ، تفيأت ظلال الحياة الزوجيـة السعيدة ، مدة احد عشر شهرا ثم فجعت فيهـا شر فجيعة ، لأنها فقدت بآن واحد ، عمتها التي كانت لها كأمها وابيها، كما فقدت زوجها وحبيبها الشاب ، وهي لا تزال تتلمظ بأفاويق حياتها السعيدة معه ، بينما حملت بين جنبيها جنينا بريئا ، كان يرتقب مرور شهرين او ثلاثة اشهر ليلج باب الحياة من مصراع اليتم القاسي ، والهم الدفين .

وهكذا وجدت مادلين رينو نفسها وحيدة في منزلها او قصرها في الحي اللاتيني وهكذا وضعت طفلتها « كلير فيشار » وعكفت على رعايتها وتربيتها ، وهي جاثمة بين يدي حزن لا يهدأ ، ودمع لا يرقأ .

سنتان قضتهما مادلين في حيـاة رتيبـة كئيبة ، لم تسوغ لنفسها خلالهما ان تخلع عن جسدها لبس السواد .

سنتان لم تخرج فيهما من منزلها الا لحاجة ماسة ، او زيارة لا بد منها ، او ضرورة حتمت عليها ان تزور «بنك الكريدي ليونيه» لمراجعة حساباتها ، ومراقبة اسعار الاسهم والسندات المالية، التي ورثتها عن زوجها وعمتها ، والتي كانت تعتمد عليهـا وحدها في تأمين نفقاتها وطفلتها ، فضلا عمـا كانت ترسله من مبالغ طـائلة للجمعيات الخيرية والمياتم والكنائس ، تبرعا منها ، وتزكية للثروة الحسنة التي ورثتها عن العمة الفقيدة والزوج الراحل .

٢

سنتان ، كان كل ما فيهما حزن يتبعه حزن ، ويأس يفذوه يأس ، ولولا ايمان مادلين بحق طفلتهـا كلير عليها ، وشعورهـا

بوجوب السهر عليها ، حتى تضمن لها المستقبل السعيد ، والحياة الهانئة ، لما وجدت مادلين لحياتها طعما ، ولا طمعت بدوامها يوما، ولكن حبها الجنوني لابنتها ، وتفانيها في رعايتها ، قد جعل منها ، امّاً تنظر الى المستقبل بعيون الجد والرضى والاطمئنان ، وتشد نفسها اليه ، بروح الحزم والعزم والصبر والوفاء .

سنتان امضتهما مادلين بجهد واخلاص ، لم تستجب فيهما لدواعي انوثتها وصباها ولم تخرج فيهما عن اطار استقامتها وجدها ، ومع ان عمرها لا يكاد يتجاوز الثمانية عشر عاما ، فانها كانت تبدو بوقارها ، كما لو كانت ابنة اربعين عاما ، على ان هذا الوقار بما يحمله من هيبة ، لم يكن ليخفي حقيقة عمرها ، لأن جمالها وسحرها وفتنتها ، كانت تدل على ان هذه الانوثة الحية ، لم تقتنص بعد من عمر الزمان ، اكثر من ثمانية عشر عاما .

كانت مادلين تزور الكنيسة بين آن وآخر ، وكثيرا ما كانت تؤدي صلاتها ، وتخرج مسرعة عائدة الى منزلها ، لا تلوي على شيء .

واليوم خطر لها ، ان تطيل زيارتها للكنيسة ، فلم تكتف بتأدية الصلاة ، بل حرصت على سماع توجيهات راعي الكنيسة والاستفادة من نصائحه .

سمعت شيئا كثيرا ، ووعت اشياء أكثر ، وعلمت مما سمعت ووعت انها مخطئة الى حد كبير، في التزام مظاهر الحزن، واستمرار لبس السواد ، لأن الله لا يرضى لعباده هذا اللون من حياة البؤس والهمّ ، وان الاتقياء الصالحين ، هم الذين يفتحون صدورهم لقضاء الله وقدره ، ويتقبلون تقاديره بصبر ورضى ، ثم يبسمون للحياة بنفس آمنة مطمئنة ، ويخوضونها بعزم وثقة وايمان .

سمعت ووعت، ثم علمت ان رب كل اسرة مسؤول عن اسرته، فاذا ما هيأ لأفرادها أسباب السعادة والهناء ، كتب الله له الثواب

وحسن الرجاء ، واذا ما ألقى بهم في أتون الشقاء ، لقي جزاءه في الدنيا ، وعند رب السماء .

وبينما كانت مادلين تستمع الى نصائح راعي الكنيسة مع المستمعين ، كانت تسائل نفسها وتقول :

كيف يكون حال ابنتي « كلير » اذا فتحت عينيها على الحياة، وهي لا ترى فيّ الا سوادا مجللا في سواد .

كيف تكون حياتها في مستقبل أيامها ، اذا نشأت في منزل لا تشرق في سمائه بسمة أمل ، ولا ترفّ في جنباته ضحكة مرح ، ولا تخفق على أرضه مشية سرور !؟

كيف تستطيع ان تبني نفسها اذا كانت لا تسمع في بيتها مقطوعة غنائية ، او معزوفة موسيقية .

كيف تخرج الى المجتمع ، وكيف تعيش مع بنيه ، اذا كانت منعزلة عن الناس ، منكمشة في بيتها ، قابعة في ظلال الحزن ومراتع الوحشة ؟

وهكذا ، راح يسبح فكرها في مهامه الخيال البعيد ، فلم تشعر الا بيد رفيقة تربت على كتفها ، فأيقظتها من خيالها العميق، وانتبهت لترى الكنيسة قد خلت من المصلين ، فلم يبق غيرها، وغير صاحب اليد الرفيقة ، التي ربتت على كتفها فالتفتت اليه شبه مذعورة ، ولكنها ابتسمت بسرعة ، فابتسم لها بسرعة ودعاها لمغادرة الكنيسة ، اذ لم يبق فيها غيرهما ، فاستجابت شاكرة ، وخرجت برفقته .

كان هذا ، شاباً طلق المحيّا ، تبدو عليه سمة الرزانة والجد ، رافقها في الطريق وبادرها بحديث لطيف شجي ، وكأنه شعر ان هنالك ما يحزنها ويقلقها ، حين بدا منها ما يشبه الذهول بين يدي راعي الكنيسة ، لذا حاول ان يخفف عنها بعض ما بها ، فحدثها وحدثته ، وأنس بها وأنست به ، فعلمت منه انه طبيب يمارس

مهنته في « الحي اللاتيني » نفسه ، وعلم انها أرملة الفقيد « الفريد فيشار » وتقطن المنزل «٦٦» من « الكارتييه دو لاتان » .

ودّعها وودعته ، فذهب الى عمله ، وذهبت الى منزلها ، ويوم الاحد التالي التقيا ايضا في الكنيسة ، فرافقها ورافقته ، ثم تتابعت الصلاة ، وتكرر اللقاء ... ولم يكن غير لقاء ، ينتهي بالوداع عند مفرق الطريق ، اذ تذهب الى بيتها ، لا تلوي على شيء، ويذهب الى عمله ، وبنفسه ان يسرع الاحد القادم خطوه ، ليسعد هذا الطبيب بمرافقة الفتاة الطيبة البريئة .

٣

وفي ليلة من ليالي الشتاء الباردة ، استيقظت السيدة مادلين رينو ، على صوت ابنتها كلير وقد انتابها سعال شديد ، كان ينطلق من صدرها ، كما لو كان منطلقا من جروح وقروح ، مما يدل على انها مصابة بنزلة صدرية حادة ، فأعطتها شيئا من المطهرات ، وحاولت ان تخفف بعض ما بها ، بكل ما تملكه من وسائل ، لكن سعالها كان يزداد ، وحرارتها كانت ترتفع باستمرار .

ولما بلغت حرارتها الدرجة الاربعين ، وجدت الام ان لا مناص من استدعاء الطبيب ، في عتمة الليل ، فقدحت زناد فكرها ، لتستعرض اسماء اطبائها المعتادين ، الا ان ذاكرتها قد خانتها وفكرها قد خذلها ، اذ لم يخطر في بالها ليلتها تلك سوى اسم واحد هو اسم الدكتور فيليب شار ، الذي لم يكن طبيبا لها في اي يوم من ايام حياتها ، وفيليب شار هذا ، هو الطبيب الشاب الوسيم ، الذي تعرفت عليه في الكنيسة ، والذي اعتادت ان ترافقه ، واعتاد ان يرافقها ، دون ان تأتي المناسبة التي تحمله على زيارتها ، او تحملها على زيارته .

حركت أرقام الهاتف واستدعت الطبيب فلبى الطلب مسرعا، وسعى الى المنزل (٦٦) فاستقبلته السيدة مادلين شاكرة مرحبة،

واخذته الى غرفة الطفلة المريضة ، فبادرها بالمعالجة السريعة ، وزرقها بحقنة مهدئة ، وبعدها أعطاها حبوبا خاصة ، فلم يمض سوى دقائق ، شعرت الطفلة معها ببرد الراحة وبدا على وجهها ما ينبىء بتحسن حالها ، فشكرت الام الحزينة للطبيب ، سرعة تلبيته وحسن اهتمامه ، ثم دعته الى غرفة الاستقبال ، لتناول قدح من الشاي .

امضى الدكتور فيليب شار بمنزل السيدة مادلين قرابة ساعة من الزمن ، استمتع فيها بحديث شجي وأنس محبّب ، وبدت عليه الدهشة ، حين تأكد من ان هذه السيدة الفتية ، تعيش وحدها في هذا القصر الكبير ، وليس عندها سوى خادمة عجوز ، ومعها خادمة صغيرة ، تبقى عندها طوال النهار ، بغية خدمة المنزل، ومساعدة ربته في الطبخ والكنس والمسح لقاء أجر شهري مقطوع.

وقبل ان يغادر الطبيب المنزل ، زار الطفلة المريضة مرة اخرى ، فاطمأن الى هدوئها ، وحسن معالجته ، ثم أعطى الام تعليماته الطبية ، لمتابعة السهر على الطفلة ، ومعاودة الاتصال الهاتفي به ، فيما اذا طرأ أي تطور على حالها ، لكي يأتي حالا ، ويقوم بأجراء ما يجب اجراؤه ، من أجل الطفلة العزيزة الغالية .

وحينما كان الطبيب يهمّ بمغادرة القصر ارادت السيدة مادلين ان تدس في جيبه بعض النقود ، الا انه احتج بشدة وبادرها بعتاب شديد ، واعتبر تصرفها هذا اهانة لصداقتهما العميقة ، وودهما الصادق .

وبينما كان الدكتور فيليب شار ، يزرع طريقه عائدا الى منزله ، ومفكرا بأمر السيدة مادلين التي تعيش وحدها . « اجل ... وحدها » في هذا القصر الكبير ، وهي على ما هي عليه من فتوة حية ، وانوثة صادقة ، وجمال ساحر ، كانت السيدة مادلين ايضا تسائل نفسها عن معنى «الصداقة العميقة ، والود الصادق» الذي فاه به الطبيب قبيل مغادرة المنزل ، لأنها لم تكن لتشعر بشيء

من هذا ، بل كان كل ما بينهما لا يعدو مرافقة الطريق اثناء العودة من الكنيسة ، فمتى خلقت الصداقة العميقة ، ومتى نشأ الود الصادق ؟!

مادلين لا تذكر سببا لذلك ، ومع هذا فقد حملت تصرف الطبيب على محمل العاطفة الثرة ، والانسانية النبيلة ، وعادت الى طفلتها لتقدم لها العناية ، ومتابعة السهر والرعاية .

ومع الصباح الباكر ، تلقى منزل السيدة مادلين باقة كبيرة انيقة من الزهور الجميلة الحية ، قد حلي جيدها ببطاقة تحمل اسم الدكتور « فيليب شار » .

ابتسمت مادلين ابتسامة هادئة ، ومطت شفتيها متعجبة متسائلة ، وقبلت باقة الزهور ، وطلبت من الخادم العجوز ، ان توزع زهورها بين مزهريات المنزل .

وبعد ساعة وصل الطبيب فيليب ، وبادر السيدة مادلين بالاستفسار عن حالة الطفلة ثم فحصها ، واطمأن الى حسن معالجتها ، ورجا من السيدة مادلين ان تتابع اعطاءها الدواء في اوقاته ، وان تستمر على توفير الراحة التامة للمريضة الصغيرة .

ثم انتقل بعد ذلك الى غرفة الاستقبال ، لأخذ قهوته مع السيدة مادلين ، وهناك شكرت ربة المنزل للطبيب « الصديق » عنايته واهتمامه ، كما شكرت له هديته اللطيفة ، باقة الزهور .

استمر الطبيب في زياراته المتتالية ، وامضى خمسة ايام كان يكرر في كل يوم منها زيارته للمنزل مرتين ، مرة في الصباح ، ومرة في المساء ، حتى ابلت الطفلة من مرضها ، وشفيت من كل ما بها ، ولولا ما كان يشعر به الطبيب من دواعي الرحمة بهذه الطفلة البريئة ، لتمنى ان لا يسرع لها الشفاء ، لكي يستمر بزياراته المحببة ، ولكي يأنس بلقاء السيدة مادلين ، ساعة في الصباح ، وساعة في المساء من كل يوم .

كانت مادلين ، ترى كل شيء طبيعيا ، وهي على التأكيد لم تكن تنفر من زيارات الطبيب ، بل كانت تأنس به وتسرّ بلقائه ، والطبيب شاب وسيم ، حلو الحديث ، انيق المظهر ، وكان في كلامه نبرة ناعمة ، تدخل الى القلب ، وترتاح لها النفس ، ولهذا توطدت صلة الصداقة بين مادلين وفيليب ، وازداد نموها يوما بعد يوم ، وان كان مفهوم هذه الصداقة في فكر مادلين ، يختلف كل الاختلاف عن مفهومها في فكر فيليب .

٤

ومرت الايام ، اسبوعا بعد اسبوع ، وشهرا بعد شهر ، حتى انقضى اكثر من ستة اشهر ، كان يلتقي فيها مادلين وفيليب مرتين في الاسبوع على الاقل ، مرة اثناء التلاقي الاسبوعي الدوري في الكنيسة ، ومرة في زيارة رتيبة يقوم بها الطبيب للسيدة مادلين في منزلها ، حيث يقضي عندها ساعة او ساعتين ، وكثيرا ما كانت تمتد السهرة الى اكثر من ذلك ، ثم لا يكون فيها غير حديث من احاديث السياسة والمجتمع او سماع مقطوعة غنائية او معزوفة موسيقية ، او رواية نكتة طريفة ، او حكاية حادث ظريف .

ستة أشهر مضت على هذه الوتيرة ، لا هي ملّت منه ، ولا هو ملّ منها ، وكثيرا ما كانت تدعوه لاطالة مدة سهرته ، وكثيرا ما كانت تؤكد عليه بعدم التأخر عن موعد زيارته القادمة .

احبّت مادلين رينو الطبيب فيليب شار ، حبّا صادقا ، ووجدت فيه رفيق الوحدة وانيس الوحشة ، واحب فيليب مادلين حبا عارما ، ووجد فيها النصف الحلو ، الذي يرجو ان يصبح خدين عمره ، وشريك حياته ، ولكن الشيء الذي لا شك فيه ان مادلين كانت تحيا في واد ، وفيليب كان يحيا في واد آخر ، ومادلين كانت لا ترى في فيليب غير صديق صادق ، وفيليب كان لا يرى بمادلين مع مرور الزمن ، غير معشوقة مقدسة ، اخذت عليه فكره وسيطرت على قلبه ، وملكت زمام أمره .

وفي احدى الامسيات عرض الطبيب على معشوقته ان يترافقا في نزهة ، يقومان بها الى مرابع قصر « فرساي » حيث يقضيان نهار العطلة الاسبوعية في حدائقه الفاتنة ، ويعودان في المساء ، بعد ان يستمتعا بنهار جميل ، فردت مادلين على صديقها بالاعتذار الشديد ، قائلة انها كرست نفسها وحياتها لرعاية طفلتها « كلير » وهي لا ترغب بالانطلاق الى المجتمع لئلا تخسر ابنتها ما تستحقه من عناية ورعاية ، واكدت له انها ترى في زيارته الاسبوعية لها ، وفي لقائهما في الكنيسة خير انس واجمل سلوى ، وهي تحرص على ان لا تخرج عن هذا الاطار ، لكي لا تفقد السيطرة على هوى النفس، ومتع الحياة .

اكد فيليب لمادلين ، ان كلير هي محل حبه وعطفه وعنايته ، وان حظها من هذه النزهة هو الحظ الاكبر ، لكن مادلين اصرّت على رفضها ، وآثرت عدم التهاون بالمنهج الذي رسمته لنفسها ، فأذعن فيليب لطلبها ، لأنه لا يملك غير الاذعان ، وانتهت سهرته تلك الليلة ، فكانت سهرة جافة بعض الشيء ، لأنها حفلت بنقاش عميق وأخذ وردٍ بل امتلأت بمحاولات اقناع وتبرير ، وانتهت كلها بالفشل وبقيت مادلين عند رأيها محافظة على خطتها ومنهاجها .

قضى الدكتور فيليب ليلته تلك ، متقلبا على فراش الوساوس والهواجس ، وهو يسائل نفسه ، عن معنى هذه الصلة القائمة بينه وبين مادلين ، اذ كانت لا تتقدم قيد انملة ، بل هي لا تزال عند النقطة التي بدأت منها ، وانتهت اليها ، لقاء اسبوعي مجرد في الكنيسة ، وسهرة صغيرة في البيت ، لا يتبعها خروج الى نزهة ولا خلوة في ملهى ، بل ... ولا روحة في مشاهدة فيلم سينمائي .

كان فيليب عاشقا ، ما في ذلك شك ، وكان راغبا في وضع حد لعشقه ، بالانتقال الى الحياة الزوجية ، والاقتران بالسيدة التي شغلت قلبه وملأت نفسه ، ولهذا صمم على مصارحة مادلين بما في نفسه ، وما شك ابدا ــ قبل هذه الليلة ــ في ان مادلين تحبه

وتوده ، وترضى به زوجا وشريكا لحياتها ، اما الآن ، وبعد اصرارها على عدم مرافقته بنزهة يوم ، بل بعد تكرارها كلمات الحرص على التزام خطتها ومنهجها لمتابعة السهر على تربية طفلتها ، فانه ــ منذ هذه الليلة ــ بدأ يشك في امكان الحصول على موافقتها للزواج منه ، وبدأ يفكر في الطريقة التي يطرح فيها موضوعه على بساط البحث مع حبيبته مادلين ، ليصل الى النتيجة المرجوّة ، عن أقرب طريق وأيسر سبيل .

أحس الدكتور فيليب ببوارق الامل ، تخفق بأجنحتها، حول خياله ، حينما رتب بفكره ــ فيما رتب ــ ان يؤكد لمادلين بأن طفلتها كلير ، لن تكون حجر عثرة في طريق زواجهما لأنه يشعر منذ الآن بانه يكنّ لها في نفسه ، أزكى ما يكنه أب لابنته من حب وعطف ورعاية ، وهي لهذا لن تكون موضع رعاية مادلين وحدها ، بل ستكون ايضا موضع حدبه العميق وحنانه الدائم .

اقتنع الطبيب في قرارة نفسه ، بأنه سيبلغ من نفس مادلين، كل ما يؤمله من موافقة سريعة على الزواج الميمون ، وبات يرتقب مرور ايام الاسبوع ، حتى يحين موعد زيارته لمنزلها ، ولما التقى بها في الكنيسة يوم الاحد ، رافقها في طريق العودة وتواعدا على ان يقضيا سهرة لطيفة في منزلها ، مساء الخميس القادم ، اي على العادة التي درجا عليها منذ اكثر من ستة اشهر .

كانت الصدمة عنيفة جدا ، وشديدة الوقع على فيليب شار، حين انبأته مادلين بأنها لا تفكر ولن تفكر بالزواج من أحد ، وان جلّ همها ينحصر برعاية كلير وحدها ، وأكدت له ان بقاءها كله ، مرتبط ببقاء كلير ، وهي لولا كلير ، لكانت الآن راهبة في أحد الاديرة ، منصرفة عن دنيا الناس ، منقطعة الى عبادة الله .

كانت الصدمة عنيفة جدا ، على نفس الطبيب ، لأن آماله تحطمت امام هذا الرد المانع ، ولأن أمانيه ، بحياة زوجية سعيدة ، قد انهارت بسرعة ، فلم يجد بُدّاً من مغادرة منزل مادلين ، وهو

على أوجع ما تكون نفس الانسان ، حين يصاب في قلبه وهواه بل حين يصاب بمستقبله ، وبما يؤمله ويرجوه من ربيع حياته .

غادر منزل مادلين ، وهو يحمل بين جوانحه حزنا اليما ، ويذرف من عيونه دمعا سخينا ، وسار في طريقه وهو لا يعلم الى اين يسير ، وهام على وجهه في عتمة الليل وكاد يتيه في طريقه الى منزله ، لولا بقية قوة اندفعت من حناياه ، فوصل الى بيته ليرتمي في احضان حمى شديدة ، طرحته على فراش المرض اياما واسابيع، كان لا يستيقظ خلالها من حمّاه الا ليرسل الآهات ، ويذرف الدمع ، وكان يتمنى ان يصاب بحياته ، ولا يصاب بحبه ، على هذا الشكل الذي حطمه وهدّ قواه .

الفصل الثالث

تحقيق صحفي

١

حينما أشرقت شمس اليوم الرابع من مايس « ايار » ١٩٥٨ كان الناس في باريس ، وخصوصا في « الكارتييه دو لاتان » يتهافتون على شراء جريدة « لوموند » ، لكي يقرأوا فيها تحقيقات الصحفي الناجح جورج سارتر حول حادث الحي اللاتيني الذي شاهد فيه جمهور الاهلين ، صبية حسناء ، يكبلها رجال الشرطة بالقيود ويستاقونها الى القضاء ، ومعها جثة صغيرة مجهولة ، حملتها سيارة الاسعاف الى مستشفى الجامعة .

ازدانت الصفحة الاولى من عدد جريدة « لوموند » بصورة ناطقة معبرة ، هي صورة مادلين رينو بفتوتها وفتنتها وجمالها الرائع ، وبشعرها الطويل المنسدل على كتفيها ، وبعينيها الزرقاوين اللتين تشعّ منهما معاني الالم العميق والحزن السافر ، وقد وضع فوقها عناوين مثيرة جاء فيها (طبيب عاشق حاقد يتهم عشيقته بقتل طفلتها ــ مؤامرة مدبَّرة وراء جريمة الحي اللاتيني ــ مادلين رينو متهمة بقتل ابنتها كلير) .

وتحت هذه العناوين المثيرة كتب جورج سارتر يقول :

في الساعة السابعة من صباح امس ٣ ــ ٥ ــ ١٩٥٨ وصل الى مركز شرطة الحي اللاتيني الدكتور فيليب شار وقدم افادة

قال فيها ان السيدة مادلين رينو القاطنة في المنزل ٦٦ من الحي اللاتيني قد استدعته هاتفيا الى منزلها قبل ساعة من الزمن لمعاينة طفلتها كلير التي اصيبت بحادث مفاجيء .

وتابع الدكتور فيليب شار يقول :

وقد ذهبت على الفور الى منزل السيدة مادلين التي قادتني توّا الى غرفة ابنتها كلير فوجدتها ممددة على سريرها جثة هامدة ، وقد احتقنت عيناها وانتفخت اوداجها ، وشخص بصرها ، فقلت : ما هذا ؟ ما بها ؟ ومددت يدي اليها وقلت : مادلين .. انها ميتة !!

فهزت مادلين رأسها ، وقالت : أجل يا دكتور انها ميتة ... اجل لقد ماتت ، واجهشت بالبكاء .

سألتها عن الحادث ، فقالت : استيقظت كلير على غير عادتها ، مبكرة اكثر مني ، وراحت تعبث في غرفتها وفي لعبها ، ويبدو انه خطر لها ان تذهب الى الحمّام فذهبت وهناك لقيت حتفها .

قلت : كيف ؟

قالت : كنت قد أخذت حمّاما ساخنا قبل نومي ، وقد ملأت حوض الحمام « البانيو » بالماء الساخن وتمددت فيه قرابة ساعة من الزمن ، ثم انهيت حمّامي ونسيت ان افتح بلاّعة « البانيو » لتصريف مياهه . كما نسيت باب الحمام مفتوحا ، وذهبت الى فراشي واستغرقت في نوم عميق .

ولما استيقظت ، تفقدت كلير في غرفتها فلم أجدها . ثم فتشت غرف البيت حتى وصلت الى الحمّام . فوجدتها طافية على مياهه ميتة ، كما تراها الآن .

قلت : والآن ؟

قالت : اعطنا ورقة رسمية بحادث وفاتها ، لكي نتابع الاجراءات الرسمية ونقوم بتنفيذ مراسم الدفن والتشييع .

وتابع الدكتور فيليب شار افادته في مركز شرطة الحي اللاتيني فقال :

بعد هذا الذي سمعته من السيدة مادلين اخذت بفحص الجثة فحصا دقيقا ، فتبين لي أن موت الطفلة مضى عليه اكثر من خمس او ست ساعات ، مع ان حديث والدتها يشير الى ان الوفاة قد تمت اختناقا قبل ساعة من مجيئي للمنزل على أكثر تقدير .

وحينما كنت أفحص الجثة ، تذكرت ان مادلين كانت على اهبة السفر الى الولايات المتحدة الامريكية ، برفقة عشيقها « فرانسوا مارتين » وتذكرت ايضا ان الطفلة كلير كانت تقف حجر عثرة في طريق سفر الوالدة الى امريكا ، حتى انني علمت بأنها كانت تفتش عن مدرسة اهلية داخلية تضع فيها الطفلة ، وتعهد بتربيتها اليها ، حتى يتسنى لها السفر الى امريكا برفقة العشيق الاثيل ..

وتابع الدكتور شار يقول :

وعلى هذا فاني ارجّح ان الامّ هي المسؤولة عن حياة ابنتها . واذا لم تكن هي التي خنقتها بأيديها في مياه « بانيو » الحمّام ، فهي بدون شك قد وافقت على خنقها ، او رضيت به ، او شاركت فيه ، ومعنى هذا ان هنالك جريمة واضحة ، وان سرّ هذه الجريمة ما يزال محبوسا في صدر السيدة مادلين ، وحتى ينكشف هذا السر ، تبقى مادلين هي المتهمة الاولى في هذه الجريمة النكراء .

وقّع فيليب شار بخط يده على ضبط الافادة وقال لرجال الشرطة بأنه يشعر بالسعادة كل السعادة لانه قام بواجبه الانساني خير قيام ، ولانه ادّى للسلطة المسؤولة شهادته ضد السيدة مادلين رينو ، بالرغم من روابط الصداقة والودّ التي قامت بينه وبينها منذ أكثر من سنتين .

هذه هي خلاصة الضبط الذي نظمه مركز شرطة الحي اللاتيني عن افادة الدكتور فيليب شار كما كتبها الصحفي جورج

سارتر في جريدة « لوموند » وبعد هذه الخلاصة تابع سارتر كتابته في الجريدة فقال :

بعد هذا ، أحال ضابط شرطة الحي اللاتيني ضبط افادة الدكتور فيليب فورا الى النائب العام الذي ذهب توّا برفقة الطبيب الشرعي وأحد رجال التحقيق الى المنزل ٦٦ ، فدخلوه وفحصوا الجثة ، فلم يجدوا دليلا جديدا على وجود الجريمة، سوى الشهادة التي ادلى بها الطبيب شار ، فكلفوا احد رجال الشرطة بحراسة الدار وذهبوا لعرض النتيجة على البروفسور جان ميشيل قاضي التحقيق ، كما صدر تكليف الى الطبابة الشرعية في القسم الجراحي بمشفى الجامعة بوجوب تشريح الجثة لتحديد اسباب الوفاة وتعيين طريقتها وزمانها ، وهكذا نفذت الاوامر ، فاعتقلت امس مادلين رينو ، وذهبت جثة طفلتها للتشريح .

قدم جورج سارتر لقراء جريدته انباءا دسمة عن حادث الحي اللاتيني ، ولكن ليس هذا هو كل ما صنعه جورج في ليلته الماضية !

٢

ان سارتر لم ينم ليلته تلك ، فبعد ان تخلص من قضية اصطدام سيارته بالسيارة الرعناء ، وبعد أن يئس من الحصول على معلومات حسنة من القسم الجراحي بمشفى الجامعة ، غادر المشفى معتمدا على مهارته الصحفية لاكتشاف اسرار هذا الحادث الغامض ، وذهب الى مشفى السجن ليرى ما اذا كانت مادلين رينو قد استيقظت من غيبوبتها ، أو تحسنت حالها ، وحينما فتح باب غرفتها ، وهمّ بالدخول اليها ، شاهد الممرضة الوقورة الحسناء وهي تحاول ان تساعد مادلين على النهوض وتضع وراءها وتحت رأسها الوسائد ، فتسمّر في مكانه ولم يشأ أن يدخل الغرفة ، وبقي مختبئا وراء الحاجز المتحرك « البارافان » وحينما

راته الممرضة غمزها بعينه لكي لا تعلم المريضة السجينة بوجوده ، وهكذا بقي سارتر في مكانه ، وهكذا راح يرى مادلين من بعيد وهي في حال يشبه الذهول ، وهكذا رآها تنطلق مع خيالها وتسرد تاريخ حياتها على الممرضة ، وتعرض أفكارها كما لو كانت تنقلها عن فيلم سينمائي تشهده في لحظتها تلك ، وحينما وصلت بحديثها الى المرحلة التي تحدثت فيها عن غرام الطبيب « شار » بها ورغبته بالاقتران بها ، ورفضها طلبه باصرار ، ثم وقوعه بين براثن حمّى شديدة ، بدا عليها الالم العميق ، كما بدا عليها الاعياء الشديد ، فأجهشت ببكاء ثقيل ، فقدت معه وعيها وحسّها وشعورها ، ثم استسلمت الى غيبوبة جديدة .

هنا دخل سارتر الى الغرفة وساعد الممرضة في تقديم المنعشات الى مادلين وسقاها بيده ضمن ملعقة ماء قليلا من نقط « الكورامين » ، وبعد أن اطمأن عليها غادر غرفتها وقد تزوّد بمعلومات حسنة عن حياة مادلين رينو وعن علاقتها بالطبيب الذي لجأت اليه ليساعدها في مصابها بابنتها ، فوشى بها ، واتّهمها بجريمة نكراء ، ووضعها بين يدي السلطة والقضاء .

عملت الريبة عملها في نفس سارتر ، فحمل شعورا خاصا ضد الطبيب فيليب شار ، وراح يحدث نفسه مقتنعا بعد اطلاعه على ضبط شرطة التحقيق ، بأن حقد شار على مادلين وعدم موافقتها على الزواج منه ، هو الذي ملأ نفسه بالغيظ ، حتى حانت ساعة الانتقام منها فاستغل موت طفلتها ، واتّهمها بأن لها عشيقا ... وانها تنوي السفر الى امريكا ... وانها ترغب بالتخلص من ابنتها بوضعها في احد المياتم او احدى المدارس الداخلية .

وصل سارتر الى مكتبه في الجريدة وكتب خلاصة ضبط حادث الحي اللاتيني ، ودفعه للمطبعة ، لكي يقرأه جمهور القراء في الصباح الباكر وذهب هو لمتابعة تحقيقه الشخصي في هذه القضية التي اشغلت قلبه ، والهبت حسّه ، وأفاضت شعوره .

ذهب الى الحي اللاتيني ، الى المنطقة المحيطة بالمنزل رقم ٦٦ ، وراح يتصل بأصحاب الحوانيت المجاورة ، ليجمع منهم معلومات عن شخصية مادلين ، وعما تتحلى به من خلق رديء او حسن ، ومن ماض نقي او ملوث ، فحصل على خيوط صغيرة لم تشف غليله ونهمه ، ولكنه اصاب مغنما حينما بدأ حديثه مع الحانوتي « البقال » الذي يبعد عن منزلها مسافة مئة متر ، اصاب مغنما لأن هذا الحانوتي كان على صلة وثقى بالسيدة مادلين ، لأن لها عنده حسابا جاريا فمن عنده تشتري جميع حاجياتها اليومية ، وهو بحكم هذه الصلة يعتبر مطلعا على حقيقة خلقها اكثر من غيره ، ولهذا راح يحدث سارتر حديثا عجبا ، عن النفس الطيبة التي تحملها مادلين في حناياها ، وعن الخلق الكريم الذي تتسم به في معاملتها ، وعن عاطفتها الانسانية الخيرة ، التي تشارك البؤساء والمحرومين في بؤسهم وحرمانهم ، وكثيرا ما تدفع عنهم غوائل البؤس وشدائد الحرمان .

وتابع الحانوتي « البقال » حديثه لجورج سارتر فقال :

تصور يا استاذ ، انني انا شخصيا اصبت بحادث ارمضني وأوجعني وهدّ حيلي ، فقد توفيت زوجتي التي كنت احبها حب العبادة ، والتي كنت لا ارى معنى لحياتي ووجودي الا من خلال حياتها ووجودها ، وقد خلفت لي بنتا كانت وما تزال أملي ورجائي في هذه الحياة ، خلّفتها وعمرها اربع سنوات ، فكان ألمي ليتم ابنتي وخوفي على مستقبلها ، لا يقل عن ألمي لموت زوجتي وفجيعتي بحياتها ، ولهذا كان همّي همّين شديدين ، وحزني حزنين أليمين ، فاعتصمت بالصبر على الهمّ الاول ، اما الهم الثاني فقد كان للسيدة مادلين فضل تخفيفه عني ومساعدتي عليه .

ولما سأله سارتر عن سر هذا الفضل أجاب :

حينما راتني السيدة مادلين حزينا على زوجتي هذا الحزن ، قلقا على مصير ابنتي هذا القلق ، خففت عني كثيرا مما بي ، وذلك ،

حينما اكدت لي انه لا يجوز لي ان أقلق على مصير ابنتي ، لان هنالك مدارس اهلية داخلية ، ترعى الطلاب والطالبات ، رعاية الآباء والامهات ، وبالغت في مواساتها اكثر حين تطوعت للبحث عن ميتم او معهد داخلي نوكل امر الفتاة اليه .

فتح سارتر اذنيه جيدا عند سماع هذا الحديث وقال للحانوتي البقال . اتمم ... وماذا فعلت أيضا ؟ . قال :

ابدت من الاهتمام بموضوع ابنتي أكثر مما لو كانت هي ام الفتاة ، فقد راحت بنفسها تزور المياتم والمعاهد وتسأل عن أيها افضل تربية ، واكثر عناية ، وأحسن سهرا على شؤون الفتيات المنتسبات اليه ، حتى اختارت معهد « القلبين الاقدسين » ، وهكذا عهدت بابنتي الوحيدة وبمساعدة هذه السيدة الفاضلة الى هذا المعهد واصبحت مطمئنا عليها غاية الاطمئنان .

وتابع الحانوتي البقال يقول لسارتر : وازيدك علما يا سيدي بأن السيدة مادلين قد أبت الا أن تساهم بالنفقة على هذه الطفلة اليتيمة ، فأصرّت على ان تدفع هي نفقات انتسابها لمعهد « القلبين الاقدسين » .

٣

وهنا بكى الحانوتي « البقال » ، وقال لسارتر : بعد هذا هل تصدق يا سيدي بأن امرأة كهذه المرأة ، تتحلى بنفس كهذه النفس ، وتحمل قلبا كهذا القلب ... هل تصدق بأنها مخطئة او متهمة ، او تستحق ان تعتقل ، وان تكبّل يداها بالحديد ، وان تؤخذ على مرأى من الناس بسيارة الشرطة ، وتساق الى ساحة القضاء ؟ ؟ .

الا تعتقد يا سيدي بأن اناسا قد حسدوها شرفها ومكانتها وحسن سمعتها ، فدبّروا لها هذه المؤامرة التي حملتها من عز القصر الى ذل السجن ؟

قال سارتر : قد يكون ذلك ... ولكن لماذا لا تقابل صنيعها بصنيع ، ومعروفها بمعروف ، ولماذا لا تحاول ان تخفف عنها بعض ما بها ، وهي التي خففت عنك كثيرا مما كان بك كما تقول .

قال الحانوتي : وماذا أستطيع أن أفعل ... دلني يا سيدي لكي أقدم من أجلها كل ما أملك .

لحظات ... كان على أثرها جورج سارتر ينطلق بسيارته الى مركز الشرطة ومعه الحانوتي البقال الذي وقف امام النائب العام يدلي بشهادته ومعلوماته عن مادلين .

بهذه الشهادة تصدّعت شهادة الدكتور فيليب شار تصدعا بيّنا ، اذ اتضح منها ان البنت التي كانت تنوي مادلين ان تعهد بها الى احد المياتم لم تكن ابنتها كلير ، وانما كانت ابنة الحانوتي البقال ، وان ما زعمه فيليب شار من ان مادلين راغبة بالتخلص من ابنتها لتسافر مع عشيقها الى الولايات المتحدة ، قد يكون باطلا كل البطلان ، يضاف الى هذا ما اصبح معروفا لدى سلطة التحقيق بعد الهذيان الذي تحدثت فيه مادلين عن تاريخ حياتها من ان الطبيب شار قد يكون طاويا نفسه على حقد دفين ضد مادلين ، لانها خذلته في حبه ورفضت ان تتزوج منه .

وفي الوقت الذي كان فيه جمهور القراء يطالع ما كتبه جورج سارتر في جريدة « لوموند » عن حادث الحي اللاتيني ، أي في صباح ١٩٥٨/٥/٤ ، كان اثنان من رجال الشرطة يقرعان باب منزل الدكتور فيليب شار ، ويستدعيانه للتحقيق معه في امر افادته حول مصرع ابنة مادلين رينو ، فانطلقا به في سيارتهما وسلّماه لقاضي التحقيق .

ذهل الطبيب لهذه المفاجأة ، ولما بدأ معه التحقيق فاجأه المحققون ايضا بقصة علاقته السابقة بمادلين وحقده عليها لانها لم توافق على الزواج منه ، ثم فاجأوه بشهادة الحانوتي البقال الذي

تطوعت مادلين لمساعدته في تربية طفلته وانها — أي مادلين — هي التي عهدت بها لمعهد (القلبين الاقدسين) .

ابتسم فيليب شار بادىء ذي بدء امام هذه المفاجأة ، ثم سأل عما اذا كان يعتبر موقوفا على ذمة التحقيق ، ام انه لا يزال حرا ، وهو مدعو لأداء الشهادة فحسب .

أجاب المحقق بأنه حتى هذه الساعة ليس هنالك ما يستوجب توقيفه ، لانه ليس له علاقة مباشرة بالجريمة ، وصلته تنحصر بالشهادة التي أداها ، والشهادات التي سيؤديها .

عند ذلك قال الطبيب شار بأن العلاقة القديمة التي كانت قائمة بينه وبين مادلين علاقة صحيحة ، ليس فيها ما يزعج او يريب ، وهو لا ينكر بأن عدم موافقتها على الزواج منه قد امضّه واضناه وفجعه في حبه وهواه ، ولكنه لم يترك في قلبه أي نقمة ضد مادلين او حقد عليها ، وقد ظلت الصلة قائمة بينهما ، لا على شكلها المستمر القديم ، بل على شكل ودّي حسن ، بدليل انه بقي هو نفسه طبيب الاسرة ، وبدليل ان السيدة مادلين قد استدعته بالذات عند حادث الوفاة .

وانطلق شار امام المحقق في حديثه وهو يؤكد انه واجه صراعا عنيفا يضطرم في ضميره ، حينما كان يرى — كطبيب — ان كلير قد قتلت قتلا ولم تمت قضاء وقدرا ، فكان مبعث هذا الصراع في ضميره انه يريد ان يقوم بواجبه المسلكي والانساني ، فيضع الامر بين يدي السلطة احتراما لدم طفلة بريئة قد ذهب هدرا ، ويريد ان لا يسيء الى السيدة مادلين ، التي كان لها في قلبه ذات يوم حب يقرب من العبادة ، او هو كالعبادة نفسها .

وبعد ان احتدم الصراع في ضميره يستطيع ان يقول بثقة واطمئنان ، ان شعور الواجب عنده قد تغلب على شعور العاطفة ، وان الرغبة باحقاق الحق قد تغلبت على الرغبة في مؤازرة الباطل ، ولهذا ذهب الى مركز الشرطة ، وقدم افادته بملء ارادته ، ووقع

عليها بخط يده ويسرّه ان يؤكد للمحقق مرة اخرى ، بأنه مستعد لتحمل جميع المسؤوليات التي تنجم عن شهادته .

اعجب المحقق بجرأة الطبيب شار ، وبتمكنه من اسلوبه في عرض حجته ، وحينما سأله عن رده على موضوع الطفلة ، طفلة الحانوتي البقال التي أصبحت من رعايا معهد القلبين الاقدسين بمساعدة السيدة مادلين والتي ظنها هو بأنها كلير ابنة مادلين ، قال : أرجو من السيد المحقق ان يعطيني فرصة اخرى للرد على هذا الموضوع ، باعتبار ان معلوماتي حوله لا تتعلق بي وحدي ، وانما تتعلق بانسان آخر يهمني ان اتصل به وأبحث الموضوع معه .

أجابه المحقق الى ما طلب ، ومنحه الفرصة التي أراد ، فودعه شاكرا وانصرف .

الفصل الرابع

نحو الهاوية

١

استدعى البروفسور جان ميشيل رئيس استخباراته الخاصة وطلب اليه ان يقوم بتحريات سريعة يجمع فيها معلومات ضافية عن « فرانسوا مارتين » الذي ورد اسمه في شهادة الدكتور فيليب شار بصفة عشيق لمادلين رينو ، كان يزمع السفر معها الى الولايات المتحدة الامريكية ، وأعطى البروفسور ميشيل رئيس استخباراته مهلة يومين لجمع المعلومات عنه ، مذكرا اياه بضرورة المحافظة على سرّية التحقيق وكتمان النتائج التي يتوصل اليها .

وبعد يومين قدم رئيس الاستخبارات للقاضي ميشيل تقريرا عن نتائج تحرياته جاء فيه ما يلي :

اعتادت مادلين رينو ان تعتمد الخياط « فيكتور لوبلان » لخياطة جميع ملابسها منذ وقت طويل ، وعند هذا الخياط تمت خياطة ملابس عرسها حينما تزوجت زوجها الراحل « الفريد فيشار » . و « فيكتور لوبلان » خياط شهير ، يتمتع بصيت الاناقة الباريسية المعروفة ، وكان رجلا عجوزا يبلغ السبعين من عمره ويملك روحا مرحة تتميز بروح الدعابة الحلوة والنشاط الحي ، وفي بداية شارع جورج الخامس القريب من قوس النصر كان يقوم محل « فيكتور لوبلان » بأبوابه العريضة ، وخزائنه الانيقة ومعروضاته النفيسة .

وفرانسوا مارتين هو المدير الفني لهذا المحل الشهير ، وهو صاحب الكلمة الاولى فيه ، وقد منحه فيكتور لوبلان جميع الصلاحيات التي تجعله آمرا ناهيا يتصرف بمقدرات المحل كما يشاء ، وكان فرانسوا ـ فيما يبدو ـ أهلا لهذه الثقة ، لانه استطاع ان يحظى برضاء جميع زبائن المحل ، كما كانت معاملته الحسنة وادارته الحكيمة ، من أهم الاسباب التي جعلت اعداد الزبائن ، تزداد اسبوعا عن اسبوع ، ويوما عن يوم ، حتى كانت السيدة التي تحظى بثوب من أثواب فيكتور وفرانسوا معدودة بين ذوات النصيب الطيب والحظ السعيد .

وفرانسوا هذا ، شاب فتي موفور الرجولة ، ومنذ شهر واحد ، وضع قدمه على عتبة العام التاسع والعشرين من سني حياته ، كان جميلا كأكثر ما يكون جمال الشباب اغراءا وسحرا وفتنة ، وكان على جماله حلو الحديث ، انيق المظهر ، لطيف البديهة ، له شعر خرنوبي مائل الى السواد وعينان عسليتان يشع منهما بريق أخاذ ، وبشرة بيضاء قد زاد من جمالها اناقة تنطق بمدى العناية بها والاهتمام بالمحافظة عليها .

وحينما جاءت مادلين رينو الى هذا المحل لخياطة ثوبين جديدين ، كان قد مضى على وفاة زوجها قرابة ثلاث سنوات ، وكانت قد بدأت تنطلق من عزلتها قليلا ، بعد ما فترت العلاقة بينها وبين الطبيب فيليب شار ، ذلك لان الصدمة التي اصيب بها الطبيب شار حينما رفضت مادلين ان تتزوجه ، قد فرضت عليه ان يقتصد في روحاته وجيئاته ، فكان لا يزورها الا لماما ، بل كان ينقطع عنها اسبوعا او اسبوعين او ثلاثة ثم لا يزورها الا اذا حدثته هي بالهاتف او طلبت اليه زيارتها ، ونستطيع ان نقول بأن شيئا واحدا سمح بدوام الصلة بينهما على هذه الوتيرة ، هذا الشيء يتضح معناه من العاطفة النبيلة التي أبدتها مادلين حيال فيليب أثناء وقوعه في براثن الحمّى الشديدة ، فكانت تزوره كل يوم ، وتتابع الاهتمام بصحته ، حتى شفي من مرضه دون ان يشفى من

حزنه على انهيار امله ، وقد كان ممكنا ان يفكر الطبيب بقطع كل صلة بينه وبينها لولا هذا الذي أبدته له من ضروب الرعاية التي دللت بهما على أنها مقتنعة كل الاقتناع بأن العلاقة القائمة بينهما ، علاقة صداقة دائمة ، وود أصيل .

وحينما دخلت الآن الى محل فيكتور لوبلان استقبلها فرانسوا مارتين عند الباب الرئيسي ، بما عرف عنه من ترحيب وتكريم ، ودعاها الى الصالة الكبرى حيث استقبلها هناك ايضا فيكتور لوبلان وقد رحب بها فيكتور وفرانسوا ترحيبا بليغا لانها لم تزر المحل منذ سنتين أو تزيد فأبدت من ضروب الحديث عن مشاغل الحياة وهمومها ما جعل جو الجلسة هادئا رزينا ، ثم طلبت الاطلاع على تصاميم الازياء الجديدة لاختيار ما يناسبها فقدم لها فرانسوا أحدث أزياء الموسم ، فكانت كلها من النوع الذي يكشف عن أكثر مفاتن الانوثة في الصدر واليدين والساقين ، فرغبت مادلين عن هذا اللون من الزي ، وطلبت أزياء أكثر حشمة وأجمل وقارا ، فعجب فرانسوا لهذا الطلب ... عجب كيف يمكن لسيدة فتية رائعة السحر والفتنة كالسيدة مادلين ، ان ترغب عن أزياء الموسم ، وتؤثر الازياء التي تصلح للعجائز لا للصبايا الفاتنات ... وانطلق فرانسوا بحديثه الطلي هذا ، متحدثا عن جمالها وسنها ، وعن الاثم الذي ترتكبه بحق نفسها اذا هي أصرّت على دفن انوثتها في وقت لا تزال فيه صغيرة السن مكتملة الانوثة فارعة القوام .

حينما كان فرانسوا يتحدث مع السيدة مادلين بهذا الحديث ، كانت كلماته لا تخرج من فمه ولسانه ، بل كانت تنبعث من قلبه من حناياه ، من عاطفته ، التي تأججت حيال مادلين فجعلت منه الانسان الذي يأسر حديثه أكثر مما يأسر جماله ، فكان كلامه يدخل الى قلب مادلين وعاطفتها ، كما لم يدخل اليه أي كلام من هذا النوع قبل اليوم ، وكادت تستسلم مادلين لسحر الحديث وأسر الجمال ، لكنها اعتصمت بالقوة ، وتجمّلت باصطناع الحزم ، وأظهرت ما يدل على اقتناعها بأنها راضية عن المسلك الذي اختطته

لنفسها ، وهي لا ترغب بالخروج الى المجتمع الا ضمن الحدود التي حافظت على صيانتها ، وعلى هذا اختارت نوعين من الازياء لثوبين جديدين ، لم يكونا من النوع السافر المكشوف ، كما لم يكونا ايضا من النوع الجامد الذي لا يصلح الا للعجائز والكهلات .

اعتقد فرانسوا انه تمكن من التأثير عليها حينما حملها على اختيار النوع الوسط ، وراح يمنّي نفسه بأنه يستطيع ان يتابع التأثير عليها ، حتى ينقلها من حياة العزلة الى حياة المتعة والانس ، ولقد شعر في ساعته تلك بيد خفية تشد قلبه الى قلبها وتفرض عليه حبها والغرام بها ، حبا بدا في أول لحظة من لحظاته قويا عنيفا في فرانسوا مارتين ، كما كان غامضا مجهول المصير في حنايا السيدة مادلين .

أنهت مادلين مهمتها في محل الخياط فيكتور وعادت الى منزلها ، وصورة فرانسوا لا تبرح مخيلتها ، وحديثه الطلي الساحر لا يغادر فكرها ، وبدأت نفسها تحدثها بجد عن ضرورة الانعتاق من العزلة رويدا رويدا،لكي تأخذ حقها من الحياة،فحتى متى تبقى كالآلة الصماء التي لا ينعشها حس ولا يغذيها شعور ؟ حتى متى تبقى غريبة عن مجتمعها وحياتها ولهوها وأنسها ؟ ! حتى متى تبيع نفسها للوساوس والاوهام ، فتبقى كالراهبة في الدير وليست براهبة ، او تعيش كالعجوز البلهاء التي شبعت من عمرها وملّت من اقتطاف لذائذ حياتها ، مع انها لا تزال في مقتبل العمر ، وميعة الصبا ... انها لم تبلغ بعد العام العشرين من سني حياتها ...

٢

لم تكن زيارة مادلين رينو لمحل الخياط فيكتور لوبلان هي السبب في كل ما طرأ على فكرها من تطور ، بل كانت نفسها مستعدة نوعا ما لمناقشة هذه الافكار ، بل ان فكرة ذهابها الى محل الخياط كانت في الاصل نقطة البداية في محاولة الانعتاق من العزلة التي

فرضتها على نفسها منذ فجيعتها بزوجها الفريد فيشار ، ولكن وجود فرانسوا مارتين في محل فيكتور ، وحديثه الساحر مع مادلين ، ورجولته الفاتنة التي أسرت شعورها ، كل هذا قد عجّل بابراز فكرة الانعتاق الى حيز الوجود ، وجعل مادلين تناقشها بحرارة وجراة ، وتسائل نفسها : لماذا أقضي على نفسي بالموت البطيء ؟ لماذا أدفن روحي وانا أعيش مع الاحياء ؟ .

أحبت مادلين فرانسوا حبا عارما ، وأحب فرانسوا مادلين حبا أعنف وأقوى ، وفي الوقت الذي كانت تناقش فيه مادلين أفكارها تلك ، كان فرانسوا يفكر باختلاق الاسباب لكي يتعجل رؤية مادلين ويأنس بقربها ويصغي الى حلو حديثها .

وبعد ثلاثة ايام قام فرانسوا بزيارة مفاجئة للسيدة مادلين في منزلها معللا اسباب هذه الزيارة ، بأن خطأ وقع في قياس ثوبها أثناء الخياطة ، فكان لا بد من هذه الزيارة لأخذ قياس جديد لجسم السيدة مادلين .

قبلت مادلين هذه العلة فورا ، ورحّبت بالسيد فرانسوا ترحيبا حارا ، وبعد أن أخذ قياس جسمها دعته لتناول القهوة في غرفة الاستقبال ، وتبع القهوة حديث ودي لطيف ، دار بينهما على أرق ما تدور الاحاديث الهادئة التي تخيم على جوها نفحات حلوة من فيض الاماني والآمال .

ولم تنس مادلين ان تشكر فرانسوا على حسن اهتمامه بأثوابها ، اذ كلف نفسه عناء المجيء الى منزلها ، ولهذا رأت ان تدعوه الى تناول طعام الغداء على مائدتها فقبل الدعوة شاكرا ، ولباها ظهر اليوم التالي .

كان غداء شهيا ، لقي العاشقان خلاله متعة ما بعدها متعة ، ولقد بدت مادلين أثناءه كأبهى ما تكون فتاة في مثل سنها وجمالها ، ولقد لبست أجمل أثوابها ، وتحلت بأجمل زينتها ، وليس من شك في انها لم تبدو كما بدت اليوم منذ ان مات زوجها ، ولهذا يصح

لنا أن نعتقد بأن مادلين قد طوت في هذا اليوم آخر صفحة من صفحات حزنها ، وافتتحت صفحة جديدة لحياتها الجديدة بدأتها بهذا الغداء الشهي مع فرانسوا مارتين .

وفي اليوم التالي قررت كسر الطوق الحديدي الذي كانت قد فرضته على نفسها ، ولبت دعوة فرانسوا الى عشاء ساهر ، وكان المقصف المختار لهذا العشاء مقصف « دينار زاد » حيث جمع الى هدوئه وأناقته ، فنونا رائعة من الالوان الموسيقية والغنائية ، وغنت فيه احدى المغنيات الفرنسيات اغنية باريس الشهيرة . « افتح قلبك للدنيا ... واقطف ثمرات الحب » فطربت مادلين كثيرا ، وبدا عليها شعور الانسان الذي خرج من ظلام السجن الى نور الدنيا وبهاء الحياة ، فتبادلت مع فرانسوا أكؤس الانخاب ، ثم تراقصا ... ثم شربا .. وتراقصا وشربا حتى مضى أكثر الليل ، وهكذا قضى العاشقان ليلة كانت كلها متعة ولذة وأنسا .

خرج فرانسوا ومادلين من مقصف (دينار زاد) وقد شربا كأسهما حتى الثمالة ، ورافق فرانسوا عشيقته الى منزلها حيث ودّعها وذهب الى بيته بعد ان اتفقا على دوام الاتصال الهاتفي فيما بينهما ، للاتفاق على موعد او مواعيد اخرى .

كانت مادلين ثملة من فرط السكر ، وكانت تشعر بنشوة عميقة ولذة كبرى ، وحينما كانت تخلع ملابس السهرة ، وترتدي لباس النوم ، كانت ترفع عقيرتها بالغناء المضطرب الذي ينطلق عادة على أفواه السكارى والمخمورين . وارتمت على سريرها لتلقي بنفسها في أحضان نوم عميق ، دون ان تذكر ابنتها كلير ، أو أن تتفقدها في غرفتها فاستسلمت لسلطان النوم وخمول الخمر ، ولم تعد تعي مما حولها شيئا.

استيقظت مادلين في ساعة متأخرة من النهار ، وفتحت عينيها وهي ممددة على سريرها فشرد فكرها في خيال عميق . وبعد استفراقة طويلة بدأت دموعها تنحدر على خديها بغزارة

ومرارة ، فبللت وسادتها وبللت شعرها ، وكأنها شعرت بالندم الشديد على ما فرط منها ، فدفنت وجهها تحت غطائها واستسلمت لبكاء مر ، ثم حملقت قليلا ، فنفضت عن جسدها دثارها وغادرت سريرها وذهبت الى الحمّام فاغتسلت ثم لبست احسن ثيابها وقامت تطوف غرف المنزل ، وتوزع الاعمال على خادمتها العجوز ومساعدتها الصغيرة ، وبدا عليها انها ارادت ان تغير نظام الحياة في المنزل ، وان تحرره من جموده ، فبدلت وضع المقاعد ، وفتحت ستائر النوافذ وجلبت الزهور الكثيرة لتسكب على بيتها روح الانس وجمال الحياة ، وفتحت المذياع لكي ينقل الى جو القصر نشوة المعزوفات الموسيقية ، وهكذا دبّت في المنزل حياة جديدة ، ادهشت الخادم العجوز والخادم الصغيرة فانطلقتا مع سيدتهما في هذا الجو الذي بدا ساحرا حلوا .

وكلير نفسها ، على صغر سنها ، كانت تشعر بنشوة ولذة ، بينما كان الكبار منصرفين الى العمل والتنظيم ، كانت كلير تركض بين غرفة وغرفة ، وكأنها ترغب بالمساهمة في هذه الحياة الجديدة، فلا يقوى سنها على تحديد غرضها ، فتصفق بأيديها تارة ، وتقفز على الارض ، او تحاول ان تشارك المذياع بعزفه وغنائه تارة اخرى .

كان معنى هذا ان مادلين صممت على دخول معترك الحياة الجديدة ، فبعد الذي بدا عليها من استغراق وندم حينما كانت ممددة على سريرها ، وبعد الصراع الذي نشب في داخلها حول ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، تغلبت عندها الرغبة الجديدة ، رغبة المتعة واقتناص لذائذ العيش ، على الرغبة القديمة ، رغبة العزلة والانقطاع عن دنيا الناس .

وعند منتصف النهار دق جرس الهاتف في منزل مادلين، ولم يكن المتكلم غير فرانسوا مارتين ، الذي حيّا مادلين واطمأن عن راحتها وتحدث معها طويلا عن سهرة الليلة الماضية فكان حديثهما على الهاتف حديثا عجبا ، وكانت ضحكات مادلين ترن في جو

المنزل على شكل لم يألفه منزلها منذ سنوات ، ثم انتهى الحديث الهاتفي بالاتفاق على موعد آخر .

استمرت العلاقة بين فرانسوا ومادلين كأقوى ما تكون العلاقة بين عاشقين ، فكان الخروج الى الحدائق والمتنزهات لا ينقطع ، وكانت سهرات الليل تتتابع ولا تفتر ، وكان السكر والرقص والغناء من مستلزمات هذه الحياة الماجنة التي غرق فيها العاشقان الى الاذقان .

وحيث ان هذه الحياة الجديدة ، تستلزم خلق نظام جديد للبيت ، فقد ازداد عدد الخدم ، واصبحت الخادم العجوز مقيمة فيه ليل نهار ، وكانت هي رئيسة الخدم التي تتولى الاشراف عليهم جميعا ، وكانت وحدها هي التي تنام وتقوم في القصر ، اما الآخرون ، فانهم يقضون نهارهم في المنزل ويغادرونه سواد الليل .

٣

وفي احدى الليالي جاء الطبيب فيليب شار ليزور صديقته مادلين ، وعلى غير العادة ، لم ير السيدة مادلين اذ فتحت له الباب الخادم العجوز ، ودعته للدخول فدخل ، ولما سألها عن سيدتها مادلين اجابت بأنها خرجت مع صديقها فرانسوا مارتين لقضاء احدى سهراتها ، وان عودتها للدار لا تتم الا بعد ساعة متأخرة من الليل .

فهم فيليب شار من الخادم العجوز كل ما يريد فهمه ، وعلم ان كل شيء في المنزل قد تغيّر وتبدّل ، وان الحياة اصبحت غير الحياة ، ومادلين الجديدة غير مادلين القديمة مادلين الراهبة القديسة المنعزلة عن دنيا الناس، قد تحللت وضاعت و... غرقت في ضلال الناس .

غادر فيليب منزل مادلين بعد ان ترك لها بطاقة مشفوعة

بشوقه وتحيته ، على انه لم يستطع ان يخفي الما قد اعتلج في قرارة ضميره ، وبكى بينه وبين نفسه حظه وسوء طالعه ، لأنه لم يكن ذلك الانسان الذي استطاع ان ينطلق بمادلين من عزلتها ، وان يضم قلبها الى قلبه ، بكى .. لكنه لم يحقد ، ولم ينقم ، بل التمس المعاذير لصديقة فؤاده ، وقال لنفسه ، لعل لها امرا ... لعل لها رايا .

وصباح اليوم التالي ، اتصلت مادلين هاتفيا بصديقها الطبيب ، وشكرت له زيارته وبطاقته وتمنت عليه ان يعاود الزيارة لأنها مشوقة لرؤياه ، فاتفقا على الساعة التاسعة من مساء اليوم نفسه ، ووصل فيليب الى منزل مادلين فاستقبلته بحرارة ، وامضت معه جلسة هادئة رزينة ، تمتع فيها بحديثها ، وتمتعت بأنسه ، وشعر الطبيب ان مادلين قد تغيرت تغيرا كبيرا ، فأصبحت موفورة الحركة ، بادية النشاط ، كثيرة المرح .

لم تطل جلسة مادلين وفيليب ، حتى طرق الباب ، وكان القادم فرانسوا مارتين ، فتعارف الرجلان وقدّمت مادلين السيد فرانسوا الى الدكتور فيليب على انه صديقها الاثيل الذي تربطها به صلة قربى بعيدة ، كانت منقطعة ، لبعد العهد بينهما ، فاتصلت الآن ، اي منذ مدة ليست طويلة اثناء مناسبة طارئة وصدفة عارضة .

تبادل الثلاثة انخاب الصحة ، وشربوا وسمروا قليلا ، ثم استأذن الدكتور فيليب للانصراف ، وحاولت مادلين ان تستبقيه مدة أطول ، فآثر الانصراف وغادر المنزل تاركا للعاشقين خلوتهما المحببة ، وقد فضحتهما عيونهما امام الطبيب فيليب شار ، اذ قرا فيها ان الصلة القائمة بين فرانسوا ومادلين ليست صلة صداقة وود ، بل هي صلة غرام متأجج وعشق متبادل .

عملت غريزة جب الاستطلاع عملها في نفس الطبيب ، ولهذا رأى نفسه مدفوعا وراء محاولة الكشف عن شخصية فرانسوا

مارتين ، ولم يطل به البحث حين عرف فيما عرف ، ان فرانسوا بحكم عمله كمدير فني لمحل فيكتور لوبلان كثير الصلة بعدد كبير من سيدات المجتمع ومن مختلف الطبقات ، وانه بحكم شبابه ونضارته وجماله قد اجتذب الى قلبه قلوبا كثيرة لسيدات عديدات واوانس كثيرات ، وعيبه انه ذوّاقة ملول ، فما يصادق اليوم صديقة ، الا ليرتمي غدا في احضان صديقة اخرى .

حصل فيليب على هذه المعلومات ، فالقاها في حنايا نفسه وضميره ، وبدا عليه ما يدل على انه لم يهتم كثيرا بما حدث ، الا ان الذي لا شك فيه ، ان فيليب قد حسد فرانسوا حظه الطيب ونصيبه الحسن ، ولكنه لم يغضب ولم ينقم ، لأنه لا حيلة له فيما تصنعه الظروف ، ولا رأي له فيما تقدره الاقدار !

اهمل فيليب شأن فرانسوا مارتين ، ولم يهمل شأن مادلين رينو ، فكان يزورها بين الحين والحين ، او كان يحدثها بالهاتف او تحدثه ، وقد اختار لنفسه اذا زارها ، أن يزورها في النهار لا في الليل ، لكي لا ينغص عليها حياتها الجديدة ، على انه كان يزورها دائما ـ كطبيب ـ كلما استدعت حالتها الصحية ، أو حالة ابنتها كلير مثل هذه الزيارة .

لم تنته العلاقة بين مادلين رينو وفرانسوا مارتين بانتهاء خياطة الثوبين الجديدين وحصولها عليهما ، بل استمرت طويلا جدا ، والذين يعرفون فرانسوا كانوا يقدرون لهذه العلاقة شهرا او شهرين ، ولكنها استمرت اكثر من ستة اشهر ، وما تزال قوية عنيفة كما لو كانت قد بدأت اليوم او كما لو كانت قد رسمت لتستمر الى الابد .

ويبدو ان حديث زواج مادلين وفرانسوا لم يكن ذات يوم موضوعا للبحث فيما بينهما ، لأن فرانسوا متزوج من فتاة تصغره بثلاث سنوات ، وهي تعيش معه في البيت الذي يعيش فيه مع امه وابيه ، ولأن مادلين لم تفكر ايضا بالزواج باعتبارها راغبة

برعاية ابنتها كلير ، مقتنعة بحياتها كأرملة تضع يدها على ثروة حسنة تمكّنها من ان تحيا حياة لذة ورفاه ومتعة .

وهنا حدث ما لم يكن بحسبان فرانسوا ، حين بدا من زوجته انها سئمت مجونه وطيشه وعدم اكتراثه بها واهتمامه بشأنها ، فراحت تتشدد في مراقبته ومحاسبته ، وراحت تستعدي عليه امه واباه ، وتعلن لهما بصراحة انها هي الاخرى شابة فتية ، وانها تريد ان تستمتع بحياتها وشبابها فالى متى يتركها زوجها في احضان الوحشة ومراتع الوحدة ؟.. والى متى يفرض عليها الانصياع الى هذا اللون من الحياة البائسة التعيسة ؟.

اشتد الضغط العائلي كثيرا على فرانسوا مارتين ، واستمر هذا الضغط شهرين او ثلاثة اشهر ، فكان فرانسوا بادي الهمّ كثير القلق ، لا هو قادر على تخفيف حدة الضغط العائلي ، ولا هو مستطيع ان يقطع علاقته بمادلين ، واستمر الضغط وثارت حوله المشاكل المعقدة ، فكانت الآلام تعتلج في نفسه ، وكان الهمّ يرمضه ويقلقه ، حتى تأثر عمله في محل فيكتور لوبلان باضطرابه النفسي ، فانشلّت حركته وتبلّد نشاطه ، ولم يعد ذلك الانسان الذي كان يفيض على المحل سحر الحركة وروعة النشاط ، ولولا خيوط الود التي كان يكنها فيكتور لوبلان لمدير محله فرانسوا مارتين ، لأنهى علاقته واخرجه من عمله ، ولقطع عليه حبال رزقه وعيشه .

لم يكتم فرانسوا مارتين عن عشيقته مادلين سر المصاعب التي كان يعانيها ، فكان ينقل لها تفصيل الحوادث اولاً بأول ، وكانت تستمع اليه دون ان تعطيه رأيا من الراي ، او تدله على مخرج من المخارج ، وهي في الواقع لم تكن لتملك غير وسيلة واحدة ، هذه الوسيلة ، قطع علاقتها معه فورا لكي ينصرف الى زوجته وامه وابيه ... وانّى لها ان تفعل ذلك ، وهي التي تهيم به ولا تقوى على فراقه او الابتعاد عنه ، وهو ايضا مثلها ، قد هام بها وسلّمها زمام امره ومصيره .

هذا هو نص التقرير الذي قدمه رئيس الاستخبارات الخاصة للقاضي ميشيل عن فرانسوا مارتين . وقد وضع فيه القاضي يده على معلومات ضافية لم تكشف سرا من اسرار الجريمة ، ولكنها سلطت عليها اضواء قوية ستساعد المحققين على اجلاء بعض غوامضها .

الفصل الخامس

إمرأة غامضة !

١

تجمعت لدى البروفسور جان ميشيل معلومات كثيرة عن جريمة الحي اللاتيني ، ولكن هذه المعلومات على كثرتها ، كانت متناقضة متضاربة ، فبعضها يؤكد ان هنالك جريمة ذهبت ضحيتها الطفلة البريئة ، وبعضها الآخر يعطي اكثر من دليل على ان حادث الوفاة قد وقع قضاءا وقدرا .

اغلق القاضي على نفسه باب مكتبه ، وبسط امامه اوراق القضية ليناقشها من جميع وجوهها ، بغية الوصول الى الحقيقة التي يحرص عليها كل قاض ذي ضمير يقظ ووجدان نبيل .

بين يديه الآن تقرير القسم الجراحي في مشفى الجامعة ، وقد تبين منه ان الطفلة المغدورة قد قتلت قتلا ولم تمت موتا طبيعيا ، كما ان الزمن الذي مضى على وفاتها حتى ساعة وصول الشرطة الى منزل الجريمة كان اكثر من ست ساعات وهذا ينفي ما كانت قد قالته مادلين من انه لا يتجاوز الساعة كما يؤكد ما قاله الطبيب فيليب شار من ان الوفاة لم تكن قضاء وقدرا ، لان تقرير المشفى قد اثبت ايضا ان الوفاة لم تنجم عن مجرد اختناق الطفلة بالمياه ، بل رافقه ضغط على الحلقوم بأصابع قوية بغية الاسراع في تنفيذ الجريمة .

وبين يديه ايضا شهادة الحانوتي البقال الذي يقول بأن مادلين قد ساعدته على تسجيل ابنته في معهد القلبين الاقدسين ، وشهادة اخرى من فيليب شار يدعمها بوثيقة خطية هي عبارة عن كتاب صادر عن معهد القلبين الاقدسين ، وموجه الى السيدة مادلين رينو وفيه موافقة ادارة المعهد على قبول الطفلة كلير فيشار في عداد طالبات المعهد على النظام الداخلي التام ، وكان الطبيب فيليب قد قدم هذه الوثيقة للقاضي بعد المهلة التي استمهلها للرد على شهادة البقال .

ومن اقرار الدكتور فيليب شار اتضح ان العلاقة التي قامت يوما ما بين مادلين والطبيب ، قد فعلت فعلها في نفس كل منهما ، مما يوحي باحتمال وجود حقد محبوس في نفس الطبيب ضد مادلين ، قد ظهر الآن الى حيز الوجود ، وبدا على شكل تحريض غير مباشر ضد تصرفات مادلين وعشيقها .

والمعلومات التي تجمعت حتى الآن عن العلاقة الغرامية التي نشأت بين مادلين وفرانسوا مارتين ، لا تعطي اي دليل على وجود مصلحة ما ، باغتيال الطفلة البريئة لأي من الفرقاء موضوع البحث، سوى ما قاله فيليب شار من ان مادلين كانت تنوي السفر الى امريكا مع عشيقها ، وهذا فقط يوحي باحتمال وجود مصلحة للعشيق او لمادلين بالتخلص من حياة الطفلة ، على ان بقاء الطفلة على قيد الحياة ومرافقتها لوالدتها الى امريكا ، او وضعها بمعهد داخلي ليلي لا يعوق مصلحة العاشقين ، ولا يحول دون متابعة قصتهما الغرامية .

ثم ... ما هو الدليل على ان مادلين وفرانسوا كانا يزمعان السفر الى امريكا ؟! ان احدا من الشهود ــ عدا فيليب شار ــ لم يدلِ باية معلومات حول هذا الموضوع .

اغلق البروفسور جان ميشيل ملف القضية ، وقرر التوسع في التحقيق ، لاستكمال البحث عن العناصر المفقودة في هذه

القضية ، وكل ما حصل عليه حتى الآن لا يحقق غنما ولا ينقع غلة .

وهنا ... أي قبل ان يرفع القاضي ملف القضية من امامه ، وقبل ان يباشر اي عمل آخر ، دخل امين سره ، وقال ان بالباب يا سيدي امرأة تصر على مقابلتك مقابلة خاصة ، وقد رفضت ان تعطي اسمها ، او تفصح عن غرضها من هذه الزيارة .

سمح القاضي بدخول المرأة عليه ، واجابها الى طلبها بجعل المقابلة سرية ، ودون ان يحضرها احد ، حتى ولا امين السر ، وحينما اطمأنت السيدة الى خلو الغرفة ، وصفاء الجو ، بادرت القاضي قائلة : ارجوك يا سيدي ، ان لا تسألني عن اسمي ، ولا عن غرضي ، ولا عن عنواني ، ويكفي أن أقول لك بانني اطلعت بطريق الصدفة على ورقة هامة ، اعتقد ان لها علاقة بالجريمة التي تحققون فيها الآن ، جريمة الحي اللاتيني ، فاذا كنت تقرني على شروطي ، فانني اطلعك على هذه الورقة ، شريطة ان تعيدها لي فورا ، لكي اذهب بها كما جئت ، وحسبي انني اقوم بواجبي امام العدالة والضمير .

عندما اجاب القاضي بالايجاب ، مدّت المرأة يدها الى حقيبتها واخرجت منها ثلاث بطاقات ، دفعتها للقاضي فاذا هي بطاقات سفر الى امريكا ، صادرة عن شركة الخطوط الجوية البريطانية B. O. A. C. الاولى باسم « فرانسوا مارتين » والثانية باسم « مادلين رينو » والثالثة باسم الطفلة « كلير فيشار » .

دهش القاضي لهذه المفاجأة ، وحاول ان يناقش المرأة بهدوء ليعرف هويتها او ليعرف سر رغبتها باستعادة البطاقات ، فذكّرته بوعده ، وانها تصر على الاحتفاظ بسرية ذلك ، فأخذ القاضي ارقام البطاقات وسجل عنده تاريخها ، والمبلغ المدفوع ثمنا لها ، ثم اعادها للسيدة التي غادرت غرفته شاكرة مطمئنة .

ازداد التضارب كثيرا في هذه القضية ، فلقد اصبح واضحا ان فكرة السفر الى امريكا تعتبر حقيقة واقعة ، غير ان وجود اسم الطفلة كلير على بطاقة السفر ، تدل على ان سفر الطفلة

الى امريكا كان مقررا بين مادلين وفرانسوا ، فمن الذي قتل الطفلة اذن ؟ او لمصلحة من جرى اغتيالها ؟!

اتجه التحقيق اتجاها جديدا ، وقرر القاضي ان يستنفذ سهامه بغية الكشف عن الجريمة ، واصدر فورا مذكرة توقيف بحق فرانسوا مارتين ، وقد كان بوده ، لولا بطاقات السفر ، ان لا يوقفه ، الا بعد انجاز التحقيق مع السيدة مادلين باعتبارها المتهمة الاولى في هذه القضية . اما الآن ... وعلى اعتبار ان حالة مادلين الصحية لا تسمح باستجوابها فان المصلحة توجب اعتقال فرانسوا لاستجوابه ومعرفة علاقته بالقضية .

٢

لم يمض على صدور الامر سوى ساعة واحدة ، كان فرانسوا مارتين على اثرها ، ضيفاً على قفص الاتهام ، وحينما وقف بين يدي البروفسور جان ميشيل ، كان بادي الهدوء ، مشرق الوجه ، ليس على وجهه ما يدل على أي خوف أو اضطراب ، وحينما سأله القاضي ان يدلي بجميع معلوماته عن جريمة الحي اللاتيني وعن المنزل ٦٦ وعن علاقته بالسيدة مادلين ، نفى فورا وجود أي معلومات لديه عن الجريمة المذكورة وقال انه قرأ نبأها في الصحف ، كما قرأه غيره من الناس ، أما عن علاقته بالسيدة مادلين ، فقد بدأ يسردها يوما بيوم وساعة بساعة ، حتى وصل الى ليلة وقوع الجريمة فقال انه قضى سهرته في تلك الليلة عند السيدة مادلين في منزلها على حسب عادته ، وقد غادرها بعد منتصف الليل ، وهي على خير ما تكون مرحا ونشاطا وانسا ، وفي اليوم التالي اتصل بها بالهاتف فاجابته الخادم العجوز وهي تبكي بحرارة ــ على الهاتف ــ وروت له قصة اعتقال سيدتها وموت ابنتها كلير ، فبادر فورا الى المنزل وسمع التفاصيل من الخادم ، ثم قصد قصر العدل ، وبعدها قصد مشفى السجن ، فلم يسمح له المسؤولون بزيارة مادلين لانها مصابة باعياء شديد ، وواقعة بين

يدي غيبوبة عميقة ، وحينما طلعت شمس الصباح قرأ تفصيلات الحادث في جريدة « لوموند » .

لم يتطرق فرانسوا بحديثه ابدا الى موضوع السفر للولايات المتحدة الامريكية ، وبدا عليه كأنه لا يعرف شيئا من هذا القبيل ، الا ان القاضي سأله عنه ، فأجاب بالنفي القاطع ، وحينما اوضح القاضي لفرانسوا مارتين ان مصلحته الخاصة تحتم عليه ان يكون صادقا وصريحا ، ابتسم فرانسوا وأكد للقاضي انه لا يقول الا الحق .

عندئذ وجد القاضي نفسه مضطرا لان يذكّر فرانسوا ببطاقة السفر التي اشتراها حديثا من شركة الخطوط الجوية البريطانية.

فأبدى فرانسوا استغرابه لهذا النبأ وكرر النفي القاطع له، وأكد انه لم يشتر اية بطاقة سفر لا من شركة الخطوط الجوية البريطانية ، ولا من أية شركة اخرى .

عندئذ لم يجد القاضي مندوحة عن الافصاح عما ظن بأنه يستطيع ان يفقأ به عين فرانسوا ، فوضع امامه فورا ارقام البطاقات وتاريخها ، ورقم المبلغ المدفوع كثمن لها ... بالرغم من هذا كله ابتسم فرانسوا مرة اخرى وقال للقاضي : انني يا سيدي أعني ما اقول تماما ، فأنا لم أبحث موضوع السفر الى امريكا مع احد ، وانا لم أفكر به مطلقا ، كما لم اشتر اية بطاقة سفر وليس لي أي علم بهذا الموضوع .

بقي فرانسوا موقوفا على ذمة التحقيق ، وصدرت الاوامر فورا بالاتجاه الى شركة الخطوط الجوية البريطانية ، لمعرفة سر البطاقات ، فجاء التقرير الرسمي السريع يقول :

« بتاريخ ١٩٥٨/٤/٢٧ وصلت سيدة الى مكتب شركة الخطوط الجوية البريطانية واشترت ثلاث بطاقات سفر الى نيويورك . الاولى باسم فرانسوا مارتين ، والثانية باسم مادلين

رينو ، والثالثة باسم الطفلة كلير فيشار ، ولم يجر تحديد موعد السفر في البطاقات بل ترك ذلك مفتوحا لينظم حسب رغبة المسافرين ، وهم سيعربون عن هذه الرغبة في مطلع الشهر القادم ، ولم تؤخذ هوية السيدة التي اشترت البطاقات كما لم تترك عنوانها لدى الشركة » .

شده القاضي ميشيل امام هذا التطور الجديد ، وراح يسائل نفسه : ترى من السيدة التي اشترت البطاقات ؟

لعلها هي نفسها السيدة التي دخلت عليه في مكتبه وفضحت سرها ؟!

ثم من تكون هذه السيدة ؟! وما هي مصلحتها من وراء شراء البطاقات ؟ وما هي مصلحتها ايضا بحمل سر هذه البطاقات الى القاضي ميشيل ؟!

امور غامضة كلها ، وهي لا تزيد القضية الا غموضا في غموض ، وما شك القاضي في ان الموقف سينجلي كثيرا ، عندما يستجوب الموقوفة المريضة مادلين رينو ، ولكن انى له ذلك وحالتها الصحية لا تسمح بمباشرة استجوابها .

وفيما كان القاضي يقلب اوجه التفكير ، رن جرس هاتفه ، فرفع السماعة ليسمع مدير مشفى السجن يقول له : ان حالة مادلين حسنة ، وقد تناولت اليوم غداءا شهيا وبدت نشيطة هادئة ، وليس هنالك ما يهددها بشيء .

بعد ساعة كان القاضي ميشيل يفتح باب الغرفة على مادلين وهي ممددة على سريرها ، فبادرها بالتحية الطيبة والابتسامة الناعمة، فردت عليه مادلين بأدب وشكر، ثم مد القاضي يده ومسح بها جبينها ورأسها ، وبعد ذلك سألها عن صحتها وراحتها فحمدت الله وشكرته ، كما شكرت لادارة المشفى حسن رعايتها وسهرها ، وبعدها اتجهت للقاضي بعذوبة ورقة وسألته عن مصيرها ... وعن تهمتها . وكأنها كانت تستنجد بعطفه وحنانه لكي ينقذها مما

هي فيه ، وحينما أجهشت ببكائها قالت للقاضي : ارجوك يا سيدي .. الا يكفيني فجيعتي بوحيدتي حتى يتهمني الظالمون بأنني أقدمت على جريمة لا يقدم عليها انسان ، وأخفت وجهها وعيونها بكلتا يديها وقالت وهي تبكي بألم : أأنا أقتل طفلتي ؟! أأنا أقتل طفلتي بيدي يا سيدي ؟! ويل لهم .. ما اقل عقولهم !.. وما اسخفهم !.. وما أبعدهم عن تقدير مشاعر الامومة والحنان .

سألها القاضي : ومن تعنين بـ « الظالمين » ؟

قالت : رجال الشرطة .

قال : وما علاقة رجال الشرطة ؟

ـ : أليسوا هم الذين اعتقلوني ؟

ـ : بلى ... ولكنهم لم يتجنوا عليك بهذا الاعتقال ، لأنهم لم يفعلوا ذلك بوحي من أنفسهم .

ـ : وبوحي من اذن ؟

ـ : بوحي اخبار قانوني ، وافادة شاهد ، وتحقيق ضبط منظم .

ـ : ومن هم أصحاب الاخبار والافادة ، ومن هو الشاهد ؟

ـ : انه صديقك : الطبيب فيليب شار .

ـ : فيليب شار ...!! يا للئيم الغادر ! انه لم ينس حقده عليّ هذه المدة الطويلة ، لانني رفضت ان أتزوجه ، وقد جاء الآن بافترائه لينتقم مني ؟!

ـ : لا تتعجلي يا مادلين ... انه لم يتهمك ، وكل ما صنعه انه وضع معلوماته بين يدي القضاء ... والقضاء هو الذي يتهمك الآن ، حتى ينجلي الامر .

٣

هزت مادلين رأسها ، وقالت : يا له من لئيم غادر !.. اذن هو الذي صنع ذلك كله ! لقد قال بعدما فحص الجثة في منزلي بأنه سيرسل لي ورقة الوفاة بعد نصف ساعة ، ولكنه لم يفعل .. بل أرسل لي المحققين والطبيب الشرعي .. ثم أرسل لي رجال الشرطة لاعتقالي .. فيا له من لئيم حاقد !.. يا له من عدو غادر !

قال القاضي : وأيضا لا تتعجلي يا مادلين ، لنفرض انك بريئة من هذه التهمة كل البراءة ، ولنفرض ان فيليب شار متجن عليك، ولكن ماذا نصنع بتقرير الطبابة الشرعية في مشفى الجامعة بعد تشريح الجثة ؟!

بدت على وجه مادلين معاني الذعر والالم وقالت :

ـ أوقد شرحوها ؟!

ـ نعم ...!

صاحت مادلين بحرقة ولوعة ، وبكت بدموع سخية وقالت : يا ويلهم ...! ثم اتجهت للقاضي وسألته عن فحوى التقرير .

أجاب : اعلمي يا مادلين ان التقرير أكد بأن الطفلة قد قتلت قتلا بيد جانية ، ولدينا اكثر من دليل على وقوع الجريمة ، وحتى هذه الساعة تنحصر ادلة الاتهام بجهتين لا ثالث لهما ، جهتك انت، وجهة صديقك فرانسوا مارتين .

ـ فرانسوا مارتين ؟!

ـ اجل ... فرانسوا مارتين !

ـ وما هي علاقته ؟

اصطنع القاضي لهجة الحزم والشدة ، وقال : لماذا يا مادلين لا تريدين ان تواجهي الواقع ؟ ولماذا تتجاهلين الحقائق الثابتة ؟ اما

كنت متفقة معه على السفر الى امريكا ؟

ـ انا ...؟

ـ اجل ... انت !

ـ انا كنت متفقة معه على السفر الى امريكا ؟

ـ اجل يا مادلين ... انت بالذات !

استضحكت مادلين بألم عميق وقالت : وهل هذا كله من افتراءات الطبيب فيليب شار ؟!

ـ لا ... بل من بطاقات السفر التي اشتريتموها وحجزتموها لدى شركة الخطوط الجوية البريطانية .

ـ بطاقات السفر ..؟ اي بطاقات ..؟ واي خطوط ؟ انني لا ادري ما هذا الذي أسمعه ؟!

ـ اوه .. مادلين ! ما فائدة هذا الاسلوب ؟ ان فرانسوا موقوف ، وقد اعترف بكل شيء !

ـ فرانسوا موقوف ؟! ان هذا ليحزنني اشد الحزن ، وانه ليسوءني كثيرا ان أكون سببا في جر المتاعب اليه ... واما ان يكون قد اعترف ... فاني لا أفقه اي معنى لاعترافه ... بأي شيء قد اعترف يا ترى ؟ وما هي علاقته بغرق طفلتي في حوض الحمّام ..؟ ثم ما هذه المعميات التي تخلقونها حولي ، قولوا ماذا تريدون مني ؟.. وماذا تريدون من فرانسوا ؟!

ـ بل قولي انت يا مادلين ، لماذا كنت تزمعين السفر مع فرانسوا الى امريكا ؟

ـ قلت لك يا سيدي بأنه لا علم لي بقصة السفر من أساسها، واقسم لك بانني ما سمعت بها الا منك .

ـ والبطاقة ..؟ بطاقة السفر المهيأة ، التي تحمل اسمك ؟

ـ اي بطاقة يا سيدي ؟ اسألوا اصحاب البطاقة ، اسألوا الذين اصدروا البطاقة ... اسألوا الذين دفعوا ثمن البطاقة ... وأجهشت في بكاء اليم .

هنا مسح القاضي رأسها بيده من جديد ، وواساها بكلمة طيبة ، وقد بدا عطفه عليها واضحا جليا ، ثم قال بهدوء وحنان :

ـ يا ابنتي مادلين ... ساعدينا على الوصول الى الحقيقة ... ان ابنتك قد قتلت قتلا ، ما في ذلك شك ، انها لم تمت اختناقا بمياه الحمام كما تظنين ... بل كان هنالك اصابع قوية قد طوقت عنقها وهي في حوض الحمام ، وضغطت عليه بشدة ، حتى فارقت الحياة .

ـ ضغطت عليه بشدة ..؟ وحتى فارقت الحياة ..؟ ترى من يكون هذا المجرم ؟ فتشوا عن الجاني ؟ فتشوا عن الجاني يا سيدي ، فتشوا عنه بقوة ... فتشوا عنه لكي أمزقه بيدي ... لكي أقضمه بأسناني . فتشوا عنه لكي انتقم منه ... ارجوك يا سيدي ... استحلفك بالله ان تفتش عن الجاني الاثيم ، لكي يلقى جزاء جريمته التي فجعني فيها بأحب وأعز وأغلى ما أملك في هذه الحياة .

وهنا بدا على مادلين شيء يشبه الجنون ، وفجأة قفزت من سريرها ، وألقت بنفسها عند أقدام القاضي تقبل نعليهما ، وتمرغ بهما وجهها وجبينها وهي تقول :

ـ ارجوك يا سيدي ، ارجوك دلني على القاتل الذي أفقدني وحيدتي ... أرجوك ...

وحينما رفعها القاضي بيديه ، وساعدها على العودة الى السرير كانت تقول بصوت متقطع متهدج :

يا لي من جاهلة ... يا لي من بلهاء ... يا لي من غبية ... لقد كنت اظن ان كلير ماتت غرقا في الحمام ، فاذا بها تموت بيد

جانية ... ترى من يكون الجاني الاثيم ؟.. من الجاني الذي انتهك حرمة منزلي ، ودخله في غفلة مني لارتكاب جريمته الشنعاء ؟ ترى من يكون هذا الجاني الاثيم ؟

بلغت الحيرة مبلغها من نفس القاضي ميشيل ، وضاعت عليه مسالك الوصول الى غوامض القضية ، ثم قال لمادلين :

ـ وماذا تظنين بفرانسوا ؟! الا تعتقدين بأن له مصلحة ملحوظة في اقصاء كلير عن طريق علاقتكما المحببة ؟!

ـ ابدا يا سيدي .. انه يحب كلير ويعطف عليها ، اكثر من حبي لها وعطفي عليها ، واما مصلحته ؟ فأي مصلحة هذه ؟.. لا يا سيدي لا ... ليس له اية مصلحة بموتها ، لا هو يطمع فيّ ولا انا اطمع فيه ، ان صداقتنا وعلاقتنا صداقة موقوتة ، وعلاقة عابرة ، هو متزوج وعودته الى زوجته امر لا شك فيه ، وانا لا أفكر بالزواج ، ولم أفكر بالزواج ، ولن أفكر بالزواج من أحد ، بل كرّست نفسي ووجودي لخدمة ابنتي والسهر عليها ، فأين مصلحة فرانسوا اذن ؟!

ـ قلت لك يا مادلين انه اعترف .

ـ كفاك يا سيدي ... وبماذا يعترف ولعله علم باعتقالي وبسوقي الى السجن فأراد ان يضحي بنفسه لكي ينقذني مما انا فيه .

يا له من محب وفيّ صادق !.. حسبي يا سيدي ان أؤكد لك بان فرانسوا لا يمكن ان يكون مجرما ، ولا يمكن ان يكون في لحظة من اللحظات موضع شكي او اتهامي ، فاذا اقتنعتم بان هنالك جريمة ، ففتشوا عن مجرمها ، ولكن ... عند غير فرانسوا مارتين ، فهو فوق الشبهات ...

سدت مسالك القضية على القاضي ميشيل ، وبلغت الحيرة مبلغها من نفسه ، فودع مادلين وغادر غرفتها ، وقد قرر ان يسلك طريقا عجيبة في التحقيق ، اذا كان فيها شيء من المغامرة ، فان مما لا شك فيه ، انها ستكون منفذا للوصول الى الحقيقة .

الفصل السّادس

وداعًا أيّها السّجن!

١

لم يتوان الصحفي جورج سارتر لحظة واحدة عن تتبع خيوط القضية ومحاولة الكشف عن جوانبها الغامضة ، وقد ادهشه كيف ذهل المحققون عن التحقيق مع جهة كان من الواجب ان يجري التحقيق معها ، قبل أية جهة اخرى ، هذه الجهة هي امرأة عجوز اسمها « هيلين دافيد » .

وهيلين دافيد ، هي الخادم العجوز ، التي تتولى رعاية قصر مادلين رينو ، وتشرف على خدمه ، وتنام وتقوم فيه .

قصد جورج سارتر منزل مادلين وتعرف على رئيسة الخدم هيلين ، وجلس اليها قرابة ساعة يحدثها وتحدثه ، وبعدها لجأ الى اسلوبه الصحفي البارع فنقل الحديث شيئا فشيئا ، الى موضوع الجريمة النكراء ، ومصرع الطفلة البريئة ، فتظاهرت هيلين فورا بابداء اسفها الشديد ، لأنها لم تكن في المنزل ليلة وقوع الجريمة .

قال جورج : كيف ..؟

قالت : كان ذلك ليلة عطلتي الاسبوعية التي اعتدت ان أزور فيها اسرتي ، واقضي عندها ليلتي ، ولما جئت في الصباح وجدت سيدتي تبكي بكاءا مرا على موت طفلتها التي اختنقت ـ كما تقول ـ

في مياه حوض الحمّام ، وبعدهـا وقع البـلاء الاعظـم فاعتقلـت سيدتي ، واتهمت بقتل طفلتها ، وما زالت حتى الآن موقوفة قيد التحقيق ، فأرجو لها البراءة ، وارجو لها الخلاص .

لاحظ جورج سارتر ان الخـادم هيلين تحب سيدتها حبـا صادقا ، وتتمنى خلاصها بأي ثمن ، ولكن هذا الحب لم يخف ما حاولت ان تخفيه عن جورج ، فلقد ادرك جورج ان هـذه المرأة تطوي جوانحها على سر عميق ، ولكنها لا تستطيع ان تفشيه ، او لا تريد هي ان تفشيه !

لجأ جورج الى طريقة ايحائية ، وراح يغرس في نفس هيلين بذور الثقة والاطمئنان ، ولقد اطمأنت هيلين الى جورج ووثقت به ، وتمنت ان تكشف له عن مكنونات نفسها ، لكنها ... كانت تخشى شيئا خطيرا !

وزاد من اطمئنان هيلين ما علمته اخيرا من ان ضيفهـا هو الصحفي الموثوق جورج سارتر مندوب جريدة « لوموند » واحد الاشخاص المولعين بالتحري عن الحقيقة والسعي لخدمة العدالة.

قالت هيلين لجورج : ارجوك ان تعفيني من هذا الحديث ، حديث مصرع الطفلة البريئة ، لأنه يؤلمني اشد الالم ، كما يؤلمني اكثر واكثر ، ان تتهم الام بدم طفلتها ، بينما يبقى المجرم الآثم حرا طليقا لا تمتد اليه يد العدالة .

ـ ومن هو المجرم الذي تقاعست يد العدالة عن ان تناله ؟

ـ لا ادري ...!

ـ كيف لا تدرين ..؟ بل ان كل كلمة تقولينها تدل على انك تعلمين وتدرين اكثر من اي انسان آخر .

ـ قلت لك ارجوك يا جورج ان تعفيني من هذا الحديث .

ـ اسمعي يا هيلين ... ألا تحبين مادلين ؟!

ـ بلى والله ... واتمنى ان افتديها بكل ما أملك .

ـ أولا تتمنين خلاصها مما هي فيه ؟

ـ بلى ... وبكل وسيلة !

ـ اذن لماذا لا تعملين على مساعدتها ؟!

ـ لا استطيع !

ـ بل تستطيعين .

ـ لا .. لا يا جورج .. ارجوك ان تعفيني ، قلت لك اعفني.

ـ مم اعفيك يا هيلين ؟

ـ قلت لك اعفني ... وهل تريد لمادلين ان تخرج من السجن لكي احل انا محلها ؟

ـ وما علاقتك انت يا هيلين ؟

ـ اسمع يا جورج ، هل تريد ان تعرف السر ؟

ـ اجل .

ـ وهل تستطيع ان تعدني بان يبقى هذا الحديث سرا مكتوما بيني وبينك ، فلا تذيعه الى أحد ، حتى نتفق على خطة ننجي بها مادلين من سجنها ، دون ان اتهم انا بدلا عنها ؟

ـ اجل !.. أعدك .

ـ اسمع يا سارتر ، انا لا أشك في ان الطفلة البريئة قـد قتلت قتلا ، ولم تمت قضاء وقدرا كما تظن والدتها ، وان القاتل ـ فيما اعتقد ـ ليس فرانسوا مارتين وليست الوالدة مادلين ، كما يظن المحققون ، بل القاتل الحقيقي امرأة مجهولة ، ليس هنالك من يسأل عنها غيري .

ـ افصحي وفصّلي يا هيلين !

ـ اسمع يا جورج ، كانت ليلة الجريمة ـ كما قلت لك ـ ليلة عطلتي الاسبوعية وحينما غادرت المنزل حوالي الساعة العاشرة ليلا ، تركت فيه، اي في غرفة الخدم ، امراة كانت تزورني كثيرا وتساعدني في خياطة بعض ملابسي ، لأنني لا أحسن الخياطة، تركتها لكي تتم خياطة ثوب كان في يدها ، رجاء ان تغادر المنزل بعد انجازه ، ولا اخفي انني شعرت يومئذ بان هذه المراة كانت على شيء من الاضطراب ، كما لا أخفي انني كنت اسمع منها كلمات تنم عن حسدها للطفلة كلير التي تعيش ـ على زعمها ـ في احضان النعيم والرفاه ، تركتها في المنزل وذهبت ، ومن يدري ؟! فقد تكون تأخرت في المنزل ، حتى اطمأنت الى ذهاب فرانسوا ، ثم الى نوم سيدتي مادلين ، ففدرت بالطفلة البريئة ، وخنقتها ثم القتها في حوض الحمّام . وفرت بجلدها لا تلوي على شيء .

ـ ولماذا يا هيلين تتكتمين في هذا الامر ، ولماذا لا تبلغين المحققين عنها ، لكي يتدبروا امرها في التحقيق ؟

ـ هذه هي المصيبة يا جورج ، انني لا أعرف اسمها ، ولا أعرف هويتها ، ولا أعرف عنوانها ، ومنذ وقوع الجريمة وانا أعيش عيشا معذبا ، لا أستطيع ان أكتم هذا الامر لأن كتمانه يعود بأفدح الاضرار على سيدتي مادلين ، ولا استطيع ان ابوح به لأنني اخشى ان اتهم انا ان لم ادل على المتهمة ! ومن اين لي بعنوانها ؟!

٢

هنا اتجه الصحفي سارتر الى الخادم العجوز وقال لها :

ـ كيف تصادقينها ... بل كيف تتولى خياطة ملابسك ، وكيف تزورك في منزلك ، وانت لا تعرفين اسمها ولا هويتها ؟

ـ ان معرفتي بها حديثة العهد ، وهي امراة شابة حلوة الحديث ، خفيفة الظل ، تعرفت بها صدفة في الحديقة العامة

« اللوكسمبورغ » فأبدت علي عطفا شديدا حينما علمت بأني أعمل في بيت السيدة مادلين رينو ، وأثنت ثناء طيبا على مادلين لانها تسمع عنها الشيء الكثير ، وقالت عن نفسها بأنها تعمل في احد المحلات التجارية ، وعرضت علي ان ترافقني الى المنزل على ان تدخله من الباب الخلفي « باب الخدم » لكي تساعدني على خياطة ملابسي ، وبالفعل ساعدتني كثيرا ، فقد أنجزت لي خياطة ثوبين خلال فترة اقل من شهر ، وكانت تصلح لي بعض الثياب التي تستدعي حالتها الاصلاح ، وليلة الجريمة كانت تصلح لي ثوبا من هذا النوع، ولكنها لم تتمه ،ممايدلعلى أنها كانت مشغولة بارتكاب جريمتها .

ـ وما هو السبب الذي يحملها ـ فيما تظنين ـ على اغتيال الطفلة كلير ؟

ـ لا ادري ، ولكن الذي ادري به تماما ، حسدها الواضح للطفلة اذ كانت كلما تشاهدها منخصاص نافذة غرفة الخدم ، تمشي او تمرح ، او تضحك ، كان يبدو عليها انها تتمنى ان تقضمها بأسنانها ! واذا لم تكن هي القاتلة ، فهل يعقل ان يقتلها فرانسوا وهو الذي يحبها حب الآباء للابناء ، ام هل يعقل ان تقتل امّ طفلتها بيديها ؟! هذا كذب ، هذا حرام ، هذا افتراء ، ان المراة هي القاتلة ما في ذلك شك ، خصوصا وانها قد اختفت ، وانقطعت عن زيارتي منذ وقوع الجريمة ، وكانت قبلا تزورني باستمرار وان لم تكن الزيارة كل يوم ، فقد كانت مرة كل يومين على الاكثر ، ما بالها انقطعت الآن ، ومضى اسبوع .. ولم تزرني ؟

قال جورج سارتر :وبعد ؟

قالت هيلين : لا شيء .. هذا هو كل ما عندي ، فهل تريد مني ان أحدّث احدا بهذا الحديث ، لكي يحمّلني مسؤولية ادخالها للبيت ، ثم مسؤولية جهلي بشخصيتها وبعد هذا أحل محل مادلين وانتقل من القصر الى السجن .

ـ لا يا هيلين .. انك لن تنتقلي ابدا الى السجن ، واذا ما وضعت هذه المعلومات امام قاضي التحقيق ، فانك ستساعدين ـ ولا شك ـ على خدمة الحقيقة والعدالة ، واعلمي انك اذا كنت لا تعرفين اسمها ، فان من المؤكد انك تعرفين شكلها ورسمها ، وقد يستطيع المحققون أن يعرضوا عليك أشكالا كثيرة من صور الناس، لا يبعد ان تكون بينها صورة صديقتك الغادرة ، اذا كانت من صاحبات السوابق .

ـ هل انت صادق يا جورج ، وواثق مما تقول ؟

ـ صادق كل الصدق ، وواثق كل الثقة .

ـ اذن اصنع كل ما تراه حسنا ، على أن لا تلقي بي في غيابة السجن ، ومرني لكي أتصرف حسب ارشادك بغية الوصول الى الحقيقة .

***

عندما سمع البروفسور ميشيل شهادة هيلين دافيد ، وضع يده على رأسه ، وقال : لقد أصبحنا في هذه القضية امام امرأتين غامضتين مجهولتين ، الاولى ، صاحبة بطاقات السفر ، والثانية صديقة الخادم هيلين .

وقال القاضي لنفسه : وماذا يدرينا فقد تكون الامرأتان امرأة واحدة !!

سأل القاضي هيلين الخادم ان تصف ملامح صديقتها فقالت: شعر خرنوبي ، عينان عسليتان ، وجه مدور ، ربعة الطول مائلة الى القصر ، وعلى وجهها مسحة حزن كأنها خلقت معها يوم ولادتها ، واما اسمها الذي عرفتها به ، او الذي قالته لي فهو: « انطوانيت » ولكنني أصبحت أشك الآن في ان يكون هذا اسمها ، بعدما فرت برسمها وجسمها .

كان القاضي يسمع وصف هيلين ويهز رأسه ، كما لو كان يؤكد شيئا يستعرضه بذهنه ، ولما انتهت هيلين من وصفها قال بينه وبين نفسه ، انها هي ... هي بالذات ... المرأة التي قدمت لي بطاقات السفر . ترى من تكون هذه المرأة الغامضة ؟

سأل القاضي هيلين ان تصف تحركات المرأة انطوانيت وتنقلاتها بين غرف المنزل حين تكون فيه ، وهل تلازم غرفة الخدم ام تنتقل الى غرف اخرى ؟

اجابت هيلين : بل كانت تتلهف للتطلع الى تحركات فرانسوا ومادلين ، وكثيرا ما كانت تغادر المنزل بعد خروج فرانسوا ومادلين منه ، ليقضيا سهرتهما في الخارج ، واذا بقيا في البيت وقضيا فيه سهرتهما ، فكانت تتأخر في بقائها ، وتراقبهما عن بعد ، ومن وراء الخصاص ، ثم تغادر المنزل قبيل انتهاء سهرتهما ، وكثيرا ما كنت انام واتركها تتلهى بالقراءة في مجلة او كتاب اذا كانت لا تتلهى بخياطة ثوب او اصلاح آخر .

قال القاضي : ولكن كيف توطدت الصلة بينك وبينها الى هذا الحد ، وكيف منحتها حرية الدخول الى المنزل ، ثم كيف كنت تنامين وتتركينها في البيت ، كيف كنت تفعلين هذا كله دون ان تتعرفي على هويتها وعنوانها ؟

ـ هذا من جهلي يا سيدي وحماقتي ، وهذا هو السبب الذي حملني على كتمان هذا الامر حتى الآن ، وانا لا أكتم يا سيدي انني امرأة عاطفية طيبة القلب ، أعطيت هذه المرأة كثيرا من عطفي وحناني ، لأنها قصت علي قصة حياتها ، فكانت كلها سلسلة متاعب واحزان وحرمان ، فهي لقيطة لا أهل لها ولا اسرة ، وهي متعبة مرهقة من كثرة الاعمال التي زاولتها ، وهي الآن تعمل « كبائعة » في محل تجاري ، تستدر منه قوت يومها ، وقد ابتعدت عن مرافقة رفيقاتها او رفقائها ، لأنها لا تريد ان تنغمس في الحياة الوسخة المؤلمة التي تحياها الكثيرات من الفتيات ، وهي ترتقب الساعة التي يمن بها الله عليها بزوج ابن حلال ، يرعاها وترعاه ،

وتنشيء معه اسرة متواضعة هانئة .

هذه هي قصتها معي ، او قصتي معها يا سيدي ، وهل أكون مخطئة أذا فتحت لها قلبي ، وأفسحت لها مجال الانس بقربي ، وانا ما شككت كل الشك بها ، الا لأنهـا انقطعت عني منذ وقوع الجريمة ، فلو كانت بريئة لما انقطعت .

حمل جورج سارتر هيلين العجوز بسيارته عائدا بهـا الى المنزل بعد ما تم تدوين شهادتها بين يدي قاضي التحقيق وانصرف الى عمله الصحفي المعتاد .

اما القاضي ميشيل ، فقد لجأ الى طريقته العجيبة التي قرر سلوكها حيال هذه القضية ، وأصدر على الفور مذكرة بالافراج عن مادلين رينو ، وفرانسوا مارتين ، لعدم قيام دليل ضدهما يثبت حتى تلك الساعة ان لهما علاقة بمصرع الطفلة البريئة ، ولم يرفع القاضي اوراق القضية ليهملها أو ليسجل حادثها « ضد مجهول» بل أعلن بأن التحقيق سيأخذ مجراه ، حتى تضع العدالة يدهـا على الجاني الاثيم .

ومع الصبـاح الباكر كـان فرانسوا مارتين يدخل غرفة صديقته مادلين في مشفى السجن ، ويخـرج معهـا مـن سجن المشفى حيث استقلا سيـارة عامـة « تكسي » كانت قريبة من باب السجن ، وعادا بها الى منزل مادلين ، حيث استقبلتهما هيلين دافيد بدموع الفرح ، واغاريد السرور .

٣

سمع سائق « التكسي » كل ما دار من حديث بين فرانسوا ومادلين ، خلال الطريق بين السجن والمنزل ، وعاد على الفور الى القاضي ميشيل ليقدم له تقريرا بما سمع ، وخلافا لما كان يتوقع القاضي كان التقرير باردا فاترا، أهم ما فيه تبادل التهاني بالخلاص من السجن ، والاعتذار من مادلين لفرانسوا على ما سببته له من

متاعب ، فضلا عن دعاء مشترك ردده العاشقان ليرجوا معه سرعة الكشف عن هوية الجاني الغادر لكي لا يضيع دم الفتاة هدرا ، هذا بالرغم من أن مادلين قد اصرت على القول بان شعورهـا يحدثها بان معنى الجريمة لا وجود له في هذه القضية ، وان ابنتهـا قد ماتت غرقا في حوض الحمام ..

استلقت مادلين في سريرها لتستعيد بعض راحتها وقامت هيلين دافيد على خدمتها ورعايتها ، بينمـا غادر المنزل فرانسوا مارتين ليذهب الـى زوجته وامه وابيـه الذين امضّهم توقيفه وسجنه ، ولقد استقبله ابوه وامه بالعناق والقبل ، بينمـا وقفت زوجته ترقب دورها اذ فتح لها ذراعيه فارتمت عليه بدموع الفرح والشكر ، فكان اللقاء بين الجميع حيا مؤثرا، وكانت فرحة الخلاص بادية على جميع الوجوه .

كانت الفرصة مواتية امام والد فرانسوا ووالدته لكي يوجها لولدهما الوحيد ، النصح الصادق والتوجيه السديد ، وراح الاب يعدد لولده مغبة الارتماء في أحضان الطيش والجهـالة ، وقال له بحنان وحب : انك يا ولدي تعرضت لأسوأ مـا يتعرض له اثنان في حياته بسبب الحياة الماجنة التي تريد ان تحياها مـع النساء الماجنات ، وأي شيء أصعب على المرء وأقسى من أن يتهم بجريمة قتل ، هو بريء منها ، ثق يا بني ان الله تعالى هو الـذي انقذك من سجنك ، ومن يدري ؟ فقد كان ممكنا ان تدفع حياتك ثمنـا لحياة الطفلة لو لم يتضح وجه الحقيقة للمحققين ، وكم كان صعبا عليك ان تدفع ثمن مجونك كثيرا من سمعتك وكرامتك وحريتك .

عد يا بنيّ الى عقلك وصوابك ، عد الى استقامتك وجدك ، عد الى عملك ونشاطك ، عد الى زوجك وأهلك ، عد الى حيـاتك الهادئة الحلوة مع زوجتك الشابة الفتية ، عد الى هذا كله ، وابتعد عن دنيا المجون ، فلقد كفاك وسيكفيك هذا الدرس القاسي الذي لقيته عند محراب العدالة وبين يدي السجن والتوقيف .

اعتقد والد فرانسوا انه بلغ من نفس ولده كل ما يريد، وبينما رأى وجه الزوجة الشابة راضيا متهللا ، رأى وجه ولده شاحبا متألما ، ولقد كان مطرقا كما لو كان يستعرض في ذهنه هموما واحداثا ، فتابع والده استغلال الفرصة المواتية بحديثه الذي كانت تدعمه الأم وتؤيده ، وتؤمّن عليه وتسنده ، ثم عكف الاب بحديثه على مادلين ، فذكر اسمها باستهتار واحتقار ، وسأل ابنه ان يكون هذا الحادث الذي وقع باغتيال الطفلة ، آخر العهد بينهما ، اذ ان مستقبله وحياته ، رهينا قطع صلته بهذه المرأة التي خلقت له المتاعب ، وجرته الى المحاكم والسجون ..

واستمر الاب في حديثه كما استمر فرانسوا باطراقه ، وقسا الاب على الابن كثيرا حين وجه له الالفاظ اللاذعة ، وحين قذف مادلين بالشتائم المقذعة ، ثم طلب من ولده ان يعلن براءته منها في هذه الساعة ، وان يعاهد امه واباه على قطع علاقته بهذه المرأة الداعرة الفاجرة .

لم يطق فرانسوا هذه الكلمات ، ولم يستطع ان يتحمل وصف مادلين بهذه الصفات ، فرفع رأسه بعنف ، وصرخ بوجه ابيه : كفى ... كفى ... اسكت .. اسكت .. انا لا اطيعك، ولن أستجيب الى طلبك .. كيف عرفتها فاجرة ؟ كيف عرفتها داعرة؟! .. دعني وشأني . دع عنك نصحي وتوجيهي ، فأنا أفضل السجن .. انا أفضل الموت على ...!

وصمت فرانسوا صموت العاجز المتهدم ، وأسقط في يد والده ووالدته ، وبينما عادت الام الى تهدئة الجو ، وعاد الاب الى التلطف مع ابنه ، كانت عيون الزوجة تذرف الدموع السخينة ، كما تذرف معها حقدا دفينا ، لأنها شعرت بأن فرانسوا لا يزال يحب مادلين ولا يزال يحنو عليها ، كما بدا لها انه مصر على حياة الطيش والمجون ، ولا يرضى عنها بديلا .

سيطرت على الجو فترة صمت رهيب ، قال الاب على اثرها:

الرأي رأيك يا بنيّ والهوى هواك ، اصنع ما انت صانع ، فاننا لا نبغي لك الا السعادة والخير ، ومع هذا فاننا نحب ان نعرف ما هو الشيء الذي يزعجك ويقض مضجعك ، حتى صرخت بأعلى صوتك انك تؤثر عليه السجن ، وتفضل عليه الموت ؟!

قل يا ولدي ، ما هو الشيء ؟ فنحن معك ومنك واليك ، قل يا ولدي ، فلعلنا نستطيع ان نخفف عنك بعض ما بك ، او لعلنا نسهم في مساعدتك وتأييدك .

اصرّ الولد على كتمان ما في نفسه ، ولما أصر عليه ابوه قال : لا شيء يا ابي .. انها هي الكلمات القاسية والنعوت الرديئة ، التي صرفتها ضد مادلين ، فانا افضل السجن وافضل الموت على ان اسمع ضد مادلين مثل هذه الكلمات .

سكت الاب واطرق برأسه الى الارض ، بينما رفعت الزوجة راسها ، وقد جفت دموعها من عينيها لتقول له : على رسلك يا فرانسوا فانت لست وحدك صاحب الحق في هذا الموضوع ، فانا زوجتك وشريكة حياتك ، واذا كنت تريد أن تستمر في حياة المجون ، وفي التقلب بين اعطاف الرذيلة والفحش ، فانا لست مستعدة لان ادفن شبابي ونضارتي على مذبح طيشك وهجرانك واستهتارك .

قال لها الزوج : افعلي ما يبدو لك يا عزيزتي ، فأنا لن ابدل طريقتي ، ولقد رسمت لنفسي منهاج حياتي ، فافعلي ما يحلو لك ، ولا تصنعي شيئا من اجلي .

هزت الزوجة راسها ، وقامت الى مخدعها ، لكي تستسلم الى دمع غزير ، وحزن مرير .

اما فرانسوا فقد قام من توّه الى شارع الشانزيلزيه حيث القى نظرة على قوس النصر ، وعكف على بداية شارع جورج الخامس حيث استقبل محل عمله ، محل الخياط الشهير « فيكتور

لوبلان » فولج باب المحل الذي انقطع عنه اياما حين كان موقوفا على ذمة التحقيق .

٤

التف موظفو المحل وموظفاته ، حول فرانسوا مارتين ، يرحبون بعودته ، ويهنئونه بسرعة الاوبة ، بينما كان فيكتور لوبلان بادي الفتور ، فلم تخرج من فمه الا كلمات الترحيب الفاترة ، التي ان دلت على شيء فانما تدل على ألم مكبوت ، وحقد غامض ، فانكمش فرانسوا على نفسه قليلا بادىء ذي بدء ، ثم أراد ان يتجاهل الموقف لينطلق الى مباشرة عمله المعتاد ، لكن فيكتور غمزه بعينه اليسرى ، ودعاه الى مكتبه ، فجلس اليه قرابة نصف ساعة يتبادلان الحديث الذي دار حول التوقيف وسببه ، والتحقيق وسيره ، والافراج وعوامله ، وانتقل فيكتور الى جوهر الموضوع الذي دعا من أجله فرانسوا الى مكتبه ، وابلغه بلطيف العبارة ان مصلحة المحل تقضي بصرفه من الخدمة ، لأن مما يسيء الى سمعة المحل ، ان يكون مديره الفني متهما بجريمة قتل ، وموقوفا على ذمة التحقيق لعدة ايام ، فضلا عن ان هذا التوقيف قد نشرت عنه الصحف كثيرا من التفصيلات التي دلت على ان هنالك حكاية عشق وغرام ، رافقها تهتك ومجون وصاحبها سهرات صاخبة في الليل ، ومواقف مشبوهة في النهار .

وقع النبأ على رأس فرانسوا وقوع الصاعقة ، وكما جرحه في سمعته وكبريائه وعزة نفسه ، فقد جرحه أيضا في لقمة عيشه ومورد رزقه ، وراح فرانسوا يؤكد لفيكتور ، ان مجرد الاتهام الذي ينصب على انسان ما ، لا يعني صدق الاتهام وثبوت الجريمة ، وأن كل انسان معرض للتهمة والنيل منه ، ولكن القول الفصل في هذا الموضوع لا يعود لمروجي الشائعات ولا لمؤججي الفتن ، بل يعود لقوس المحكمة ، لميزان العدالة ، لكلمة الله ، التي يفصل فيها القاضي بين الحق والباطل ، فيدين المجرم الآثم ، ويبرىء

البريء المظلوم .

واما عن علاقته بمادلين فقد قال بانها علاقة شخصية لا تتصل باحد من الناس ، وهي تتعلق به وبمادلين فقط ، وبالرغم من هذا كله فانها كانت علاقة صداقة وودّ ليس فيها ما يؤذي أحدا او يسيء الى أحد ، فلماذا يكون لهذه التهمة الظالمة في نفس فيكتور مثل هذا الاثر ، ولماذا يبادر فيكتور الى صرفه من الخدمة في المحل الذي افنى فيه عمره وزهرة شبابه .

مط فيكتور شفتيه متعجبا متسائلا ثم قال لفرانسوا : اسمع يا صديقي ، انك تخطىء حين تظن بان علاقاتك الشخصية هي ملكك وحدك ، لا .. أبدا ، ان علاقات الانسان تقاس بمقدار صلته بافراد المجتمع ومدى علاقته بطبقاته ، فالانسان الذي يصرّ على ان يجعل حياته الشخصية ملكا لشخصه وحده ، يجب عليه اول ما يجب ان ينفصل بشخصه عن مجتمعه ، فان لم يستطع ان يحقق هذا الانفصال ، وجب عليه ان يراعي المجتمع بشعوره وعاداته وتقاليده ، وطبيعي ان الانسان لا يستطيع ان يحيا لنفسه او مع نفسه فقط ، بل لا بد له من مجتمع يعيش بين حناياه وفي اعطافه ، ومن هنا جاء المفهوم الاخلاقي بل الحقوقي الرفيع الذي يقول : « تنتهي حرية الفرد حين تبدأ حرية الآخرين » وهذا معناه أنك لست حرا بتصرفاتك اذا كانت هذه التصرفات تؤذي مجتمعك بعاداته وتقاليده ، أو تسيء الى مثله واهدافه ... لا يا صديقي لست حرا بعلاقاتك الشخصية ، فهي ملك مجتمعك ، فضلا عن ان طبيعة عملك توجب عليك ان تكون مثلا أعلى في هذه العلاقات لان الاسر الرفيعة والطبقات المحافظة التي تزورك في محل عملك هذا ، تتوقع دائما ان تجد فيك هذا المثل بابرز صفاته ، اما اذا تغيّر الوضع فثق ان اكثر زبائن المحل ستنصرف عنه ، ولن يبقى له الا الذين يرون رأيك في فن العلاقات الشخصية !!

اسمح لي يا صديقي فرانسوا ، فانا انظر للموضوع من زاويته المادية ، من زاوية مصلحة محل فيكتور لوبلان الخياط

الشهير ، اما اذا اضفت اليه نظرتي من الزاوية المعنوية فاني أؤكد لك انني لم ار فيما اصطنعه العصر الحديث من مبادىء « أسوا من المبدأ الذي تتحدث أنت عنه » مبدأ حرية الانسان في حياته الشخصية ، ذلك لان من الكفر بالمبادىء السامية ان يكون لكل انسان حياة خاصة وحياة عامة ، فالحياة حياة واحدة وهي اما ان تكون حياة خلق وشرف وفضيلة او لا تكون ...

اما عن الاتهام او التوقيف او الخروج من السجن ، فاسمح لي ان اقول لك بانك ما زلت حتى الآن متهما ، بل ما زلت في رأيي موقوفا حتى ينكشف سر الجريمة ، وحتى تضع العدالة يدها على جميع عناصرها ، فتدين المجرم وتبرىء البريء ، وليس خروجك من سجنك وتخلصك من التوقيف دليلا على براءتك ، فانت متهم حتى تفصل المحكمة في الدعوى ، وفوق هذا فان للمجتمع آراء وافكارا لا نستطيع ان نتجاهلها او ننكرها ، منها مثلا ، ان كل من يتهم بجريمة او بفعلة منكرة ، لا يبرؤه منها الرأي العام ، ولو برأه منها القضاء ، بل يجعلها نقطة سوداء في تاريخ حياته ، تؤثر على مركزه في ماضيه وحاضره ومستقبله .

قد يكون الرأي العام ظالما في هذا الحكم ، وقد يكون متجنيا على ابرياء لا ذنب لهم ، او قد يكون ذنبهم ضئيلا لا يتعدى وقوفهم في مواقف التهمة ، ولكن ماذا نصنع ؟! هذا هو الرأي العام ، وهذا هو حكمه ، وهذه هي شريعته التي لا نستطيع ان ننفلت منها .

لهذا ارجوك ان تعذرني يا صديقي اذا تمسكت بموقفي هذا، لان مصلحتي ومصلحة محلي توجب عليّ صرفك من الخدمة ، وكل الذي ارجوه لك ان تجد العمل الآخر الذي يضمن لك حياة افضل واكرم ، على انني ارجو لك شيئا آخر ، هو ان تكون قد تلقيت درسا مفيدا من دروس الحياة ، يعينك على تنظيم ما تبقى من ربيع حياتك ، فتعيش لنفسك ولأسرتك ولمجتمعك على افضل ما يكون العيش .

علم فرانسوا ان كل محاولة يبذلها مع فيكتور تعتبر محاولة

فاشلة لان هذا الرجل العجوز المرح ، قد انقلب الى حكيم مفكر ، لا تجدي معه المداورة ، ولا يخدعه اللف ، فآثر الصمت على الكلام، وقام من مكانه ، فودّع فيكتور وداع جريح آلم ، واطرق برأسه الى الارض حين كان يمرّ امام موظفي المحل ، ووصل الى الباب الخارجي وعيونهم ترمقه بحزن ورثاء ، فلقد علموا ان فيكتور اوبلان صرف مديره الفني من الخدمة ابقاءا على سمعة محله وصيانة لمكانته .

الفصل السابع

بين الحب والحيرة

١

كان الصحفي سارتر من اول الوافدين على قصر مادلين رينو لتهنئة سيدة القصر بخروجها من السجن ، وعودتها الى منزلها معززة مكرمة ، ولقد استقبلته مادلين في غرفة نومها ، وهي مستلقية على سريرها ، بجسمها البض الذي داعبته الاعاصير ، ووجهها المتورد الذي دغدغه الشحوب ، ذلك لان الاجهاد لا يزال يعمل عمله في جسمها الطري ونفسها الحزينة ، وبعد ان شكرت مادلين لجورج شعوره الطيب ، وما قدمه لها من مساعدة قيمة ايام محنتها ، علقت بحديثها على موقف القاضي ميشيل ، وأثنت على نبله وعاطفته وبعد نظره .

وهنا قال لها جورج سارتر ، ان القاضي لم يكن راضيا عن سير التحقيق كما لم يكن راضيا عن النتائج التي اسفرت عنها تحقيقاته ، لانه حتى هذه الساعة يعتقد انه مقصر باداء واجبه كل التقصير اذ لم يستطع بعد ان يضع يده على الجاني الاثيم ، لكي يشعر ببرد الراحة واطمئنان الضمير .

قالت مادلين : اولا يزال القاضي يعتقد يا جورج ان هنالك جريمة وحادث قتل ؟!

ـ وكيف لا يكون ذلك يا مادلين ، وهناك اكثر من دليل !

ـ كلها ادلة جوفاء لا طائل تحتها يا جورج ، وانا برغم ما سمعته وعلمته عن هذه الادلة ، لا ازال اميل الى الاعتقاد بان وفاة الطفلة كانت قضاء وقدرا !

ـ ولكن الم تسمعي حديث الخادم هيلين عن المراة الغامضة التي كانت تزورها ليلا في هذا القصر ؟.

ـ بلى .. سمعت بعض هذا الحديث ، وهو ايضا حديث اجوف ، ليس فيه ما ينقع غلة او يبلّ صدى !

ـ لا يا عزيزتي ... ان الامر ابعد من ذلك !

وهنا نادى جورج سارتر الخادم هيلين ، واعاد عليها اسئلته، وسمع منها اجوبتها عن المراة الغامضة ، فكانت مادلين تسمع ولا تكترث ، وترنو ولا تبدي شيئا من الاهتمام ، لانها لا تزال مقتنعة بان ابنتها ماتت غرقا واختناقا ولم تمت قتلا واغتيالا .

وفيما هما بحديث الاخذ والرد ، قدم زائر جديد لزيارة مادلين وتهنئتها بسلامة الخروج من السجن ، ذلك هو الطبيب الصديق فيليب شار ، وما ان راته مادلين داخلا غرفتها حتى اكفهرّ وجهها واصفر لونها ، واجابته على تحيته ببرودة وجفاء ، وقعا على نفس فيليب وقوع الصاعقة ، ولكنه تجاهل هذه المعاملة وبدا يقدم لمادلين حديثه الهادىء مشفوعا بسروره البالغ لخروجها سالمة من السجن ، ولم تستطع ان تكبت شعورها ، او تكظم غيظها فقالت له بحنق : وهل سرك يا دكتور ان اخرج من السجن وانت الذي ارسلتني اليه ؟!

قال الطبيب : لا يا عزيزتي انا لم ارسلك الى السجن ، وانا قمت فقط بواجبي الانساني كطبيب ، واعلمت السلطات المسؤولة بان ابنتك قد ماتت غيلة وغدرا لكي تفتش عن الجاني ، وتصون دم الطفلة البريئة عن الضياع .

قالت : كفاك جهلا ، كفاك طيشا ، كفاك ظلما ، اما تزال

تردد نفس الاغنية وتزعم ان هنالك جريمة .

ـ انني لست وحدي يا سيدتي قائل هذا القول ، فهناك تقرير مشفى الجامعة ، ومعلومات تشريح الجثة و ..

ـ اسكت اسكت ، لا تذكرني بجريرتك ، فلولاك لما تم تشريح الجثة ، ولما أؤذي جسم الطفلة بعد موتها . لقد كنت وما زلت سبب هذه المتاعب كلها ، وانا اعلم ان حقدك عليّ ، وضغينتك ضدي ، هي التي حملتك على صنع ما صنعت ، لانني رفضت ان اتزوجك ، وها انت تعود الآن اليّ كأن امرا لم يقع ، او حادثا لم يحدث .

وجم الطبيب امام هذا الاسلوب الخشن ، وودّ ان تبتلعه الارض في ساعته تلك ، ليتخلص من تعنيف هذه السيدة المريضة الآلة ، ولكن السيدة لم تكتف او لم ترتو ، فتابعت تقول : ما اشد جهلي ، وما أبلغ غبائي !! كيف كنت اطمئن اليك خلال هذه الاشهر الطويلة ، وكيف كنت اعتبرك صديقا صادق الطوية ، دون ان اكتشف حينئذ حقدك ودخائل نفسك !!

لم يستطع الطبيب ان يضبط مشاعره اكثر مما ضبط فوقف على قدميه مزمعا الخروج من المنزل بعد ان وجه لمادلين كلمات قاسية جرحتها في ساعتها تلك ، وخرج الطبيب من لدنها ، وامارات التأثر الشديد والالم العميق ، ينضح بها وجهه ، ويتصبب لها جبينه ، خرج من منزلها بعد ان اغلق بابه بعنف وقسوة دلت على مدى الالم الذي امتلأت به نفسه .

كل هذا وجورج سارتر متسمر على مقعده ، يشاهد فصول الرواية التي تجري امامه بدهشة وحيرة ، وحينما خرج الطبيب قال سارتر لمادلين : لقد قسوت على هذا المسكين كأكثر ما تكون القسوة ، فقالت على الفور : لا تقل مسكين بل هو دساس ماكر مخادع ، وانا لم اشف منه غليلي ، لذا لم اكن قاسية ، بل كنت لطيفة رقيقة بالنسبة لما صنعه بي ، وما جره علي من متاعب .

بدا على مادلين معنى الارتياح لما صنعته بالطبيب فيليب شار فاطمأنت في سريرها وبدت عليها الرغبة بالاستسلام لسلطان النوم، فاستأذنها جورج سارتر ، وتمنى لها نوما هادئا ، وودعها وانصرف.

وفي المساء قدم فرانسوا مارتين ، لزيارة صديقته مادلين في منزلها ، وكان بادي الهم ، شديد الحزن ، بالغ التأثر ، فاستقبلته مادلين بعاطفة محببة ، وآلمها ان يبدو على حالته تلك ، فلم يملك ان يحبس دمعة حارة ، انطلقت من عينه ، لتستقر فوق وجنته ، لكن انملة مادلين الحريرية ، كانت اسبق اليها من الانسكاب على صفحة الخد ، فحملتها بلهفة وحنان لتطويها في حنايا منديلها الرقيق ، ثم سألته ان يفصح لها عن دخائل همه ومكنون نفسه ، علها تستطيع ان تشاركه همه الجديد او حزنه الدفين .

بدأ فرانسوا حديثه الصريح ، مع صديقته الاثيلة . وراح يسرد عليها مراحل المصائب التي انهالت عليه بتفصيل ودقة ، فذكر لها حديث اصطدامه مع أمه وأبيه ، ثم تخاصمه مع زوجته وتهديدها له ، واخيرا .. صرفه من عمله في محل فيكتور لوبلان ، وتركه عالة على نفسه واسرته ، وهو الذي لا يملك ثروة او مالا او عقارا ، وأفصح لها عن شعوره بأنه يرى أبواب العمل مسدودة امامه ، لان توقيفه وراء جدران السجن ، قد جعل اسمه مقترنا بشبح الجريمة ، كما جعل سمعته ملطخة بعار الاتهام .

اطرقت مادلين اطراقة حزن جريح آلم ، ثم رفعت رأسها وهي بادية الشحوب والاضطراب ، وتوجهت الى فرانسوا وقالت :

اسمع يا صديقي ، لقد كفانا ما لقينا من عناء اتصالنا الظالم وعلاقاتنا المشبوهة ، وآن لنا ان نضع حدا لعلاقتنا هذه ، بانهائها عند النقطة التي انتهت اليها ، فاذهب انت الى امك وابيك ، وعد الى زوجتك البريئة الطيبة ، وحاول ان تدع حياة المجون والطيش، لكي تجد العمل الذي تستدر منه حق عيشك وعيش اسرتك ،

اذهب يا صديقي ، وانقطع عني ، وسأنقطع عنك ، حتى يجعل الله لكل منا فرجا ومخرجا .

٢

حينما سمع فرانسوا هذا الكلام من صديقته مادلين احسّ بصدمة قاسية تدق حنايا قلبه الكسير وفوآده الجريح ، فلم يتمالك نفسه ، واجهش ببكاء حار ، واتجه الى مادلين ومنديله بين يديه يبلله بدموعه الغزيرة وهو يقول :

لا .. لا يا صديقتي ، لن أذهب ... ولن انقطع عنك ، ولن تنقطعي عني ، فلقد خلقت لك وخلقت لي ، وآن لنا ان نمسح الخطيئة التي ربطت مصيرك بغيري ، وربطت مصيري بغيرك ، فانت تعلمين انني لا استطيع العيش بدونك ، وانا أعلم انك لا تستطيعين العيش بدوني ... لا لا ... يا صديقتي ، لا لا يا حبيبتي ، لن اذهب ، ولن انقطع ، ولن ... الا اذا مت بين يديك ، وفي حنايا حبك ووداك ، وبشكل لا شعوري ، اعتنق العاشقان بعضهما بعنف وتعانقا وهما على مقعدهما الوثير بحرارة ، فالتقى الوجهان ، وتلاحم الصدران ، وانهمرت من العيون دموع غزيرة ، كان يرافقها تنهد عميق ، ينبعث من أعماق قلبين جريحين ، قد شربا ما تشربه القلوب من اكؤس الحب اللاهب ، والشوق المضطرم .

واستقر الحبيبان في احضان غيبوبة ندية حالمة . لم يستيقظا منها الا على صوت قرع خفيف على الباب ، يؤذن بدخول الخادم ومعها اقداح الشاي ، فوضعت الصينية امامهما وخرجت ، ثم ما لبثا ان عادا الى البحث في موضوعهما بجد واهتمام ، للوصول الى الحل المناسب ، والخروج من المأزق الذي سدّ عليهما دروب الحياة .

« ما رأيك بالسفر الى امريكا ؟ »

كلمة خرجت من فم مادلين بهدوء وتربص وحذر ، بعد ساعة

صمت وسكون سادت جوّ الغرفة .

رفع فرانسوا رأسه بدهشة وقال :

« بل ما رأيك انت ؟ »

ـ ان ما تراه أنت أراه أنا .

ـ وأنا لا أرى الا ما ترينه أنت .

ـ اذن ، فلتكن هذه خطتنا ، ولنستعد للسفر على جناح السرعة ، لكي ننتقل الى البلد الذي نستشعر فيه معنى العيش الهنيء في ظل حب صادق وود عميق .

***

لم يجد فرانسوا كما لم تجد مادلين ان من مصلحتهما ان يتحدثا لأحد عن مضمون قرارهما الاخير ، فانصرف كل منهما الى أعداد عدة السفر بصمت وحذر .

كان فرانسوا يدخل الى بيته واجما حزينا ، فلا يكلم زوجته ولا تكلمه ، واذا ما حدثه ابوه أو أمه بشيء ، فانما يحدثانه بما يظنان انه يخفف عنه لواعج الحزن والهم ، فلا يفسح لهما مجال الاطالة والاسهاب ، بل يقصر الحديث على ما يختلقه من حوادث حظه السيء ، الذي لم يفتح امامه ابواب عمل جديد ، يستدر منه رزق العيش .

وكانت زوجته ترمقه بنظرات حادة بعيدة المعنى ، كما كانت تعد عليه حركاته وسكناته ، فلم تكن مقتنعة في قرارة نفسها ، بأن مبعث همه وحزنه ، هو مجرد فشله بالحصول على عمل جديد ، بل كانت تعتقد بان وراء هذا الوجوم امورا خطيرة ، تشغله وتحزنه وتقلقه .

***

وكذلك كانت مادلين ، منصرفة الى انجاز اسباب السفر ، وتحضير وسائلها ، فباعت كثيرا من اسهمها وحوّلتها الى أموال نقدية ، وبمضيّ اسبوعين على خروجها من السجن ، كانت قد انجزت جميع أعمالها ، فجاءها فرانسوا لينبئها بانه بات مستعدا تمام الاستعداد لمغادرة البلاد في اللحظة التي تعينها صديقته مادلين .

وفي صباح اليوم التالي ، قدم فرانسوا الى منزل مادلين حسب الموعد المتفق عليه ، فذهبا سوية الى مكتب شركة الخطوط الجوية الفرنسية ، فاشتريا بطاقتي سفر الى نيويورك ، وحددا موعد الطائرة ، فكان بعد خمسة أيام ، حيث تقلع بهما في الساعة الثانية عشرة عند منتصف الليل .

وخرجا من مكتب الشركة الى مصرف « الكريدي ليونيه » حيث سحبت منه القسم الاكبر من اموالها ، وحولته الى « بنك اوف امريكا » في نيويورك .

وفي زاوية من زوايا المصرف ، لاحظت مادلين ان انسانا غريبا كان يختلس النظر اليها بمهارة وحذق وما حدقت فيه قليلا حتى علمت انه هو نفسه الشخص الذي رأته قبل ساعة في مكتب شركة الخطوط الجوية الفرنسية .

ترى هل كان الامر مجرد صدفة ؟! هل رأته هناك ورأته هنا بمجرد هذه الصدفة ؟! أم أن هنالك مراقبة خفيفة تتبعها وتعد عليها وعلى فرانسوا الحركات والسكنات ؟!

هذا ما كانت تسائل نفسها عنه ، ولم تشأ ان تلفت نظر فرانسوا اليه ، خشية ان يبدو من ارتباكه ما يلفت اليه الانظار ، او يجر نحوه الشكوك .

وحينما خرجا من المصرف واستقلا سيارة « تكسي » ليعودا الى البيت ، امرت مادلين سائق « التكسي » ان يتجه الى قصر العدل !!

شده فرانسوا لهذا الامر ، ولكنه تظاهر بعدم الاكتراث حينما كانت مادلين تشد باصبعها على يد فرانسوا بشكل خفي فهم منه ، ان يصمت ولا يكترث .

امرت مادلين سائق السيارة ان ينتظرهما امام قصر العدل ، ودخلت مع فرانسوا الى ردهة القصر ، حيث استأذنت لتدخل على البروفسور جان ميشيل .

استقبل القاضي الكبير ، متهمي الامس بالترحيب ، ودعاهما للجلوس ، وبادرهما بالسؤال عما اذا كانا قد عثرا على دليل جديد يؤدي الى اكتشاف سر الجريمة ، فنفت مادلين ذلك ، وجددت قولها للقاضي بانها لا تزال تميل الى الاعتقاد بان حادث الوفاة كان قضاءا وقدرا .

ثم اتجهت الى القاضي وقالت : جئتك يا سيدي استأذنك السفر الى الولايات المتحدة الامريكية ، برفقة صديقي فرانسوا ، وقد سعيت الى طلب هذا الاذن خوفا من أن تحوم حولنا شبهات جديدة .

لم يبد على القاضي ميشيل ما يشعر بانه قابل هذا الطلب بدهشة ، بل مط شفتيه قليلا ورسم عليهما علامة استفهام مصطنعة ، وقال : كنت أوثر ان لا تقوما بسفرتكما هذه ، الا بعد اكتشاف سر الجريمة ، ولكن ماذا نصنع ؟! أنتما تصران على أن عنصر الجريمة مفقود في قضية هذه الطفلة البريئة ، ونحن نصر على العكس ، ومع هذا لا أجد الآن ما يحول دون سفركما ، فمتى عزمتما على السفر ؟ وهل تقضيان هناك مدة طويلة ؟.

قالت مادلين : سنسافر بعد خمسة ايام ، ولم نحدد بعد موعد عودتنا ، ولا اظن اننا نستطيع ان نعود قبل شهرين .

كانت المعلومات التي يطوي القاضيجوانحه عليها والتيوصلت قبيل وصول مادلين وفرانسوا اليه ، تدل على أن الاموال التي

حولتها مادلين الى « بنك اوف امريكا » لم تكن اموالا للانفاق خلال شهرين او ستة اشهر او سنة بل كانت اموالا للاقامة الدائمة والاستقرار هناك دون عودة ، ومع هذا تظاهر القاضي بعدم الاكتراث وقال : وهل ستسافران بواسطة شركة الخطوط الجوية البريطانية ؟!

اجابت مادلين ببراءة : لا ، بل مع شركة الخطوط الجوية الفرنسية !

ابدى القاضي دهشته وقال : لماذا ؟! ان لكما امكنة محجوزة في الشركة البريطانية ؟

قالت : وما علاقتنا يا سيدي ؟ اننا لم نحجز ولم نشتر اية بطاقة من الشركة المذكورة !

ابدى القاضي تعجبه ، وقال ان قضية هذه البطاقات الثلاث تشغل ذهني كثيرا ، فمن الذي اشتراها يا ترى ! ثم اردف يقول : سنعرفه ، سنعرفه فيما بعد !

انتهت الجلسة عند القاضي ميشيل ، فنهضت مادلين وفرانسوا وودعا القاضي الذي تمنى لهما سفرا سعيدا .

دفعت مادلين اجرة « التكسي » الذي عاد بهما الى المنزل ، ودخلت هي وفرانسوا وقالت له في حجرة الاستقبال : لقد لاحظت ان انسانا كان يراقبنا في شركة الخطوط اولا ، وفي المصرف ثانيا ، فاحببت ان لا ادع مجالا للشك والريبة ، فذهبت الى القاضي ميشيل واستأذنته السفر ، فكيف رأيت ؟!

قال فرانسوا : حسنا صنعت يا عزيزتي ، ولقد قطعت الطريق على المغرضين ودعاة السوء .

٣

غادر فرانسوا منزل مادلين الى بعض شؤونه ، بينما دعت مادلين خادمتها العجوز هيلين ، وانبأتها بعزمها على السفر ، وطلبت اليها ان تصرف الخدم ، وتدفع لهم أجورهم ، ففعلت بعدما ابدت استغرابها لهذا التصرف ، ثم سألتها عن مصيرها هي ، وهل ستسافر معها ، ام انها تبقى وحدها في البيت ، أم تصرفها كما صرفت بقية الخدم .

طيّبت مادلين خاطر هيلين ، وانبأتها بأنها كانت ولا تزال موضع ثقتها وحدها ، وهي اذا كانت قد اضطرت للسفر بقصد الراحة والاستجمام ، فليس معنى هذا ان سفرها سيطول ، بل ستعود بعد مدة قصيرة الى بلدها وبيتها وان هيلين ستبقى في المنزل مدة غيابها ، تصونه وترعاه ، وتقوم على امره ، ولكن بنفقات معقولة ، واقتصاد لا اسراف فيه ولا تقتير .

فرحت هيلين بهذه الثقة ، وشكرت لسيدتها حسن صنيعها، ولم يفتها ان تؤكد انها لن ترتكب الخطيئة التي ارتكبتها من قبل ، اي لن تسمح لاحد بدخول المنزل مهما تفنن بخداعه ومكره ، لكي لا تتكرر ، مأساة الطفلة التي تظن هيلين ان صديقتها انطوانيت هي التي اغتالتها .

ابتسمت مادلين ، وقالت لهيلين : حسنا تصنعين ، واعلمي ايضا انك ستكونين انت الضحية هذه المرة ، فيما اذا استهترت بعد الآن كما استهترت من قبل .

واردفت مادلين تقول : ولكن لا تقلقي يا هيلين ، ان رفيقتك انطوانيت ، ليست مجرمة ، ولا اعتقد انها هي التي اغتالت ابنتي كلير ، ان كلير ماتت اختناقا ما في ذلك شك .

قالت هيلين : لا .. لا يا سيدتي انها هي التي خنقتها . والا، فلماذا انقطعت عني ولم تزرني منذ وقوع الحادثة ؟

قالت مادلين : الا يجوز ان تكون مريضة ؟ الا يجوز ان تكون مصابة بحادث سيارة ، الا يجوز ان تكون قد تزوجت ؟ الا يجوز ان تكون قد ماتت ؟!

هزت هيلين رأسها وقالت : بلى والله ... يجوز ويجوز ، فانت يا سيدتي أعرف مني .

استمرت مادلين بتوجيه هيلين لطي ما يجب طيه من الثياب، ووضعه في الخزائن والجوارير ، ورشه بمسحوق « النفتالين » ، وكانت تعاونها بتغطية ما تجب تغطيته من الاثاث ، كالمقاعد الكبيرة والصغيرة ، والفرش والوسائد وغير ذلك . كما بدأت في اليوم التالي ، بلف السجاجيد ، واسنادها الى جانب بعضها في احدى زوايا غرفة الطعام الكبيرة ، وفي هذه الغرفة امرت السيدة مادلين بصف قطع الصيني النفيسة والاواني المزركشة ، كما جمعت فيها كل ما يخشى عليه من الكسر او العطب .

وعلى هذه الوتيرة من التنظيم ، أمضت مادلين وخادمتها الايام الثلاثة التي سبقت ميعاد السفر ، وفي اليوم المحدد ، وقفت مادلين امام هيلين ووضعت في أيديها مبالغ حسنة من المال ، قالت لها على اثرها ، انفقي منها يا هيلين حسب حاجتك ، فلا تسرفي ولا تقتّري ، واعتقد ان هذه المبالغ تفيض عن حاجتك فهي وديعة عندك ، حتى اعود من هذه الرحلة .

وعندما حل المساء وصل الى قصر مادلين ، فرانسوا مارتين ومعه حقيبة سفر جديدة ، بدأ يرصف فيها بعض الثياب الضرورية التي اشتراها ، لانه آثر ان لا يأخذ شيئا من بيته ، لكي لا يعلم ابوه وامه وزوجته بنبأ سفره .

ولما دقت الساعة الحادية عشرة ، كان كل شيء منتهيا فاستدعى فرانسوا سيارة « تكسي » بواسطة الهاتف فوقفت امام الباب ، وحملت حقيبة فرانسوا وحقيبتين اخريين للسيدة مادلين، ثم ودعت مادلين خادمتها هيلين وداعا حارا ، فقبلتها هيلين وهي

تبكي بحرارة ، ورجت لها ولصديقها فرانسوا سفرا سعيدا ومتعة طيبـــة .

انطلقت السيارة من الحي اللاتيني ، قاصدة مطار « اورلي » في ضاحية باريس ، فوصلت في الوقت المناسب وبـدأ الصديقان اجراءات السفر بعدما سلما جوازي سفرهما الى الامـن العام ، وقبل الساعة الثانية عشرة بدقائق معـدودة ، فوجئـت مادلـين وفوجيء معها فرانسوا بان جوازيهما قد حجزا لدى الامن العام ، وان الاوامر صدرت بمنعهما من السفر .

لم يكن في يد مادلين وفرانسوا اي حيلة في تلك الساعة من الليل ، وحينما اقلعت الطائرة من المطار وتسلقت اجواز الفضاء ، كانت مادلين ملزمة بالاستسلام التام ، وكان فرانسوا كما كانت مادلين ، ممتلئا غيظا وحنقا وألما ، وحينما بدءا محاولاتهما لمعرفة اسباب منعهما من السفر ، فوجئا ايضا بانهما موقوفان على ذمـة التحقيـق .

تولت سيارة الشرطة نقل مادلين وفرانسوا ، مـن مطـار « اورلي » في ضاحية باريس ، الى قصر العدل ، حيـث كـان بانتظارهما البروفسور جان ميشيل ، وحينما ادخلا عليه كانـا يظنان ان توقيفهما سيطول ، وان عودتهما الى السجن اصبحت حقيقة ، لكن القاضي ميشيل فاجأهما بالبشر والترحيب ، واعتذر اليهما عن اوامره بمنعهما من السفر ولكنه حمـل اليهمـا بشراه السارة بقوله ان العدالة قد وضعت يدها على اسرار الجريمـة كلها ، وان دم الطفلة البريئة لم يذهب عبثا ، وان القاتل قد اصبح في قفص الاتهام ، ولهذا رأى القاضي ان يمنع الأم وصديقها مـن السفر ، لكي يتسنى لهما الاطلاع على مراحل القضية الاخـيرة ، ومن ثم يتسنى لهما السفر وهما انعم بالا واكثر رضى واطمئنانا.

قالت مادلين : هل قبضتم على القاتل ؟

قال القاضي : نعم !

— ومن هو ؟!

— ستعرفينه قريبا جدا !

— ولماذا أمرتم بتوقيفنا مرة اخرى على ذمة التحقيق ؟

— لا .. لا لم يصدر ضدكما مثل هذا الامر !

— بل ، هكذا بلّغنا الامن العام في المطار .

— ان كان هذا ، فهو خطأ ، وكل ما في الامر أننا رغبنا بتأجيل سفركما بعض الوقت ، حتى ننتهي من التحقيق ، ونضـع قيـد الجريمة في عنق المجرم .

وهنا ودع فرانسوا ومادلين القاضي ميشيل ، وخرجا مـن قصر العدل ، وكانت الساعة تشير الـى الواحـدة والنصف بعد منتصف الليل ، وعادا الى منزل مادلين ، حيث فوجئت بعودتهما الخادم العجوز ، فدخلا المنزل ليقضيا فيه ليلتهما ، وليحصلا على التفصيلات مع صباح اليوم التالي .

الفصل الثامن

إمرأة وراء القضبان

١

حينما كان فرانسوا ومادلين ، يشربان قهوة الصباح ، بعد ليلتهما القاسية التي قضياها بين مطار « اورلي » ودوائر الامن العام وقصر العدل ، كانا قد قرءا كما قرأ جميع الناس ، الاخبار التي كتبها الصحفي جورج سارتر في جريدة « لوموند » عن اكتشاف جريمة الحي اللاتيني ، وكانت الدهشة والحيرة بالغة مبلغها على وجهي فرانسوا ومادلين .

اما ما كتبه جورج سارتر في جريدته فهو ما يلي بالتفصيل :

« لجأ البروفسور جان ميشيل القاضي المحقق في جريمة الحي اللاتيني ، الى كل ما يملكه من وسائل التحقيق لكشف النقاب عن الجريمة النكراء ، التي ذهبت ضحيتها الطفلة البريئة كلير فيشار ، وحيث ان الادلة التي تجمعت لديه كانت ادلة متناقضة متنافرة ، فقد اختار اسلوبا جديدا في التحقيق ، بدأ بالافراج عن المتهمين الاصليين وهما مادلين رينو ــ والدة الطفلة ــ وعشيقها فرانسوا مارتين ، اذ فتح لهما باب السجن ، وترك امامه اضابير القضية ليتابع فيها التحقيق بدقة ومهارة ، وانتهى الى وضع قائمة باسماء جميع الذين كان لهم أي مساس بهذه القضية او بأي طرف من اطرافها ، فكرّس لهم عددا كبيرا من رجاله السرّيين ، يعدّون على كل منهم حسناته وسيئاته ويحصون عليه انفاسه

وعدد خطواته ، فكانت تأتيه التقارير تباعا ، وفيها كل ما يريد معرفته عن كل منهم سواء اتصل بشخصه مباشرة او بمن يزوره او يتصل به في منزله او في مكان عمله .

وعلى هذا كانت تجري الامور بدقة متناهية ، كما كانت خيوط القضية تتضح شيئا فشيئا امام القاضي الذي وضع يده على سر الجريمة جملة وتفصيلا .

بدأت المراقبة الدقيقة تعطي ثمارها منذ أن خرج الطبيب فيليب شار من منزل صديقته مادلين حانقا حاقدا على ما بدر منها من قسوة حياله ، وذلك حين وجهت اليه الكلمات التي اعتبرها اهانة له بحضور الصحفي جورج سارتر ، مع انه لم يزرها الا لتهنئتها بسلامة الخروج من السجن .

وحينما خرج من منزلها بعد ان اغلق بابه بعنف كان بادي التأثر ، مضطرب الملامح ، فتلقفه اثنان من رجال الشرطة السريين ، وحملاه الى قصر العدل لمقابلة قاضي التحقيق الذي طلب منه الافصاح عن كل ما رآه وما سمعه خلال زيارته لمادلين ففعل .

وهنا توجه القاضي الى الطبيب وقال :

اننا لا نشك في انك ترغب كما نرغب نحن في الوصول الى الحقيقة لكشف النقاب عن الجريمة ، ولكن بعض الشبهات بدأت تحوم حول شخصك بالذات ، ويمكنك أن تتخلص منها بمجرد اعطائنا المعلومات التالية :

اولا ــ كيف عرفت قبل غيرك من الناس ، ان مادلين وفرانسوا قد عزما على السفر الى الولايات المتحدة الامريكية ؟

ثانيا ــ كيف استحصلت على نص الرسالة التي وجهتها ادارة معهد القلبين الاقدسين الى السيدة مادلين بموافقتها على قبول طفلتها كلير ، ذلك لأن التحقيق مع ادارة المدرسة قد دلنا على أن امرأة ادعت أنها خادمة مادلين رينو ، قد زارت المعهد وعرضت

ادخال الطفلة فيه فحصلت على الموافقة واخذت بذلك الرسالة الخطية موضوع البحث .

ثالثا ــ من هي المرأة التي حملت اليك رسالة معهد القلبين الاقدسين ، وما هي علاقتك بها ؟!

رابعا ــ ما هي معلوماتك عن بطاقات السفر المشتراة من شركة الخطوط الجوية البريطانية باسم فرانسوا ومادلين وابنتها كلير !

اطرق الطبيب هنيهة ، ثم رفع رأسه وقال : انني لا أرى يا سيدي ، في كل هذا ما يدعو الى القلق والاضطراب ، وموضوعي يتلخص في أن امرأة لا اعرف اسمها اعتادت ان تزورني في عيادتي ، بين حين وآخر ، وتقدم لي مثل هذه المعلومات ، باعتبارها تعلم شيئا عن علاقتي السابقة بمادلين رينو ، فكنت اسمع منها هذه المعلومات ولم اكترث بها ، حتى جاء اليوم الذي طلبتم فيه مني ما يثبت دعواي بعزم مادلين على وضع طفلتها في المعهد ، فاستمهلتكم اياما ، زارتني خلالها المرأة المذكورة فطلبت منها الوثيقة المنشودة ، فحملتها الي في اليوم التالي حيث حملتها بدوري اليكم .

ــ ومن تكون هذه المرأة ؟

ــ لا اعرف هويتها !..

ــ لكنني ارى ان من الافضل ان تعرف .

ــ اؤكد لك انني لا أعرف هويتها ، ولكنني سأسعى معكم للتعرف عليها ، وليس لديّ سوى وسيلة انتظارها حتى تأتي لزيارتي ، وحينئذ اقدّم للتحقيق ما استطيع ان اقدمه ، وبديهي انني حريص كل الحرص على معرفة الحقيقة التي تيسّر للعدالة سبيل الكشف عن هذه الجريمة النكراء .

أظهر القاضي ميشيل اقتناعه بما سمعه من الطبيب فيليب شار ، وأمر باخلاء سبيله ، على مبدأ استمرار التعاون بينه وبين

التحقيق حتى تنجلي غوامض القضية .

الى هنا ينتهي ما كتبه جورج سارتر في العدد الاخير من جريدة « لوموند » وقد ختمه بقوله :

هذا فصل واحد من الفصول التي لجأ اليها القاضي ميشيل للكشف عن جوانب القضية ، وهنالك فصول كثيرة جرت حوادثها مع كل ذي علاقة قريبة او بعيدة بحوادث هذه الجريمة ، وقد صرح لي القاضي ميشيل بانه انتهى من تحقيقاته ، وسيذيع اليوم بيانا بانهاء التحقيق ، وسوق المتهمين الى القضاء .

انتهى فرانسوا ومادلين من قراءة ما جاء في جريدة «لوموند» فوضع كل منهما رأسه بين كفيه ، وأطرق يفكر فيما توصل اليه التحقيق من نتائج .

٢

لم تمض سوى فترة وجيزة على انتهاء مادلين وفرانسوا من قراءة جريدة « لوموند » ، حتى سمعت مادلين قرع جرس الباب، فرفعت رأسها من بين يديها ، منتظرة ان تعرف من القادم في هذا الصباح ، فسمعت صوت رجلين من رجال الشرطة ، يدخلان المنزل بعدما فتحت لهما الخادمة هيلين ، فاستقبلتهما مادلين بعدما قدما لها تحيتهما وسألاها ان ترافقهما بسيارتهما مع السيد فرانسوا والخادمة هيلين .

قالت مادلين : والخادمة هيلين ؟ لماذا ؟

ـ هذه هي الاوامر يا سيدتي !

نهضت مادلين ونهض فرانسوا ، وسارت معهما الخادم هيلين الى سيارة الشرطة وبعد برهة كانوا جميعا امام القاضي ميشيل الذي حياهم وأمر بادخالهم الى غرفة مستقلة .

والى جانب القاضي ميشيل ، كان يجلس الصحفي جورج سارتر ، الذي كان يعجب من هذه الحشود المتتابعة التي ضمت اشخاصا كثيرين ، كان يوزعها القاضي على غرف مستقلة . دون ان يعرف كل فريق من الذي يجاوره في غرفته المستقلة .

وبعد ان انتهى القاضي من استكمال عناصر دعواه انتقل الى صالة التحقيق الكبرى ، وجلس وراء مكتبه وأمر باستدعاء السيدة جوزفين دامار . فحملها رجال الشرطة اليه ، وكانت فتاة جميلة تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها ذات شعر خرنوبي وعينين عسليتين ، ووجه مدوّر ، وقد بدا عليها الخور وشدة الضعف ، فكانت لا تقوى على المشي ولا على الوقوف ، فأمرها القاضي بالجلوس فجلست مطرقة حزينة كئيبة .

أمر القاضي باستدعاء السيدة مادلين رينو والسيد فرانسوا مارتين من غرفتهما المستقلة ، ولما مثلا امام القاضي شده فرانسوا حينما رأى زوجته جوزفين دامار على حالتها تلك ، وقبل ان ينبس ببنت شفة فاجأه القاضي :

ـ هل تعرفها ؟!

ـ اجل يا سيدي انها زوجتي .

ـ حسنا ، اجلس ..

جلس فرانسوا ومادلين ليشهدا تتمة الفصول ، وقد بدا الجو رهيبا قاتما .

ثم أمر القاضي باستدعاء الطبيب فيليب شار من غرفته المستقلة ، ولما مثل امام القاضي بدت عليه الدهشة والحيرة ، وقبل ان يوجه اليه أي سؤال ، قال له الطبيب : نعم يا سيدي ، انها ، هي ... هي بنفسها .

قال القاضي : ومن هي ؟

التحقيق حتى تنجلي غوامض القضية .

الى هنا ينتهي ما كتبه جورج سارتر في العدد الاخير من جريدة « لوموند » وقد ختمه بقوله :

هذا فصل واحد من الفصول التي لجأ اليها القاضي ميشيل للكشف عن جوانب القضية ، وهنالك فصول كثيرة جرت حوادثها مع كل ذي علاقة قريبة او بعيدة بحوادث هذه الجريمة ، وقد صرح لي القاضي ميشيل بانه انتهى من تحقيقاته ، وسيذيع اليوم بيانا بانهاء التحقيق ، وسوق المتهمين الى القضاء .

انتهى فرانسوا ومادلين من قراءة ما جاء في جريدة «لوموند» فوضع كل منهما رأسه بين كفيه ، وأطرق يفكر فيما توصل اليه التحقيق من نتائج .

٢

لم تمض سوى فترة وجيزة على انتهاء مادلين وفرانسوا من قراءة جريدة « لوموند » ، حتى سمعت مادلين قرع جرس الباب، فرفعت رأسها من بين يديها ، منتظرة ان تعرف من القادم في هذا الصباح ، فسمعت صوت رجلين من رجال الشرطة ، يدخلان المنزل بعدما فتحت لهما الخادمة هيلين ، فاستقبلتهما مادلين بعدما قدما لها تحيتهما وسألاها ان ترافقهما بسيارتهما مع السيد فرانسوا والخادمة هيلين .

قالت مادلين : والخادمة هيلين ؟ لماذا ؟

ـ هذه هي الاوامر يا سيدتي !

نهضت مادلين ونهض فرانسوا ، وسارت معهما الخادم هيلين الى سيارة الشرطة وبعد برهة كانوا جميعا امام القاضي ميشيل الذي حياهم وأمر بادخالهم الى غرفة مستقلة .

والى جانب القاضي ميشيل ، كان يجلس الصحفي جورج سارتر ، الذي كان يعجب من هذه الحشود المتتابعة التي ضمت اشخاصا كثيرين ، كان يوزعها القاضي على غرف مستقلة . دون ان يعرف كل فريق من الذي يجاوره في غرفته المستقلة .

وبعد ان انتهى القاضي من استكمال عناصر دعواه انتقل الى صالة التحقيق الكبرى ، وجلس وراء مكتبه وأمر باستدعاء السيدة جوزفين دامار . فحملها رجال الشرطة اليه ، وكانت فتاة جميلة تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها ذات شعر خرنوبي وعينين عسليتين ، ووجه مدوّر ، وقد بدا عليها الخور وشدة الضعف ، فكانت لا تقوى على المشي ولا على الوقوف ، فأمرها القاضي بالجلوس فجلست مطرقة حزينة كئيبة .

أمر القاضي باستدعاء السيدة مادلين رينو والسيد فرانسوا مارتين من غرفتهما المستقلة ، ولما مثلا امام القاضي شده فرانسوا حينما رأى زوجته جوزفين دامار على حالتها تلك ، وقبل ان ينبس ببنت شفة فاجأه القاضي :

ـ هل تعرفها ؟!

ـ اجل يا سيدي انها زوجتي .

ـ حسنا ، اجلس ..

جلس فرانسوا ومادلين ليشهدا تتمة الفصول ، وقد بدا الجو رهيبا قاتما .

ثم أمر القاضي باستدعاء الطبيب فيليب شار من غرفته المستقلة ، ولما مثل امام القاضي بدت عليه الدهشة والحيرة ، وقبل ان يوجه اليه أي سؤال ، قال له الطبيب : نعم يا سيدي ، انها ، هي ... هي بنفسها .

قال القاضي : ومن هي ؟

ـ هي المرأة التي اعتادت أن تزورني في عيادتي وان تزودني بالمعلومات المفصلة عن العلاقات الدائرة بين فرانسوا ومادلين ، وهي التي أعلمتني مسبقا بعزمهما على السفر الى الولايات المتحدة الامريكية ، وهي التي حملت الي نص رسالة معهد القلبين الاقدسين الموجهة الى السيدة مادلين رينو .

قال القاضي : وانها ايضا هي زوجة فرانسوا مارتين التي نفست عليه علاقته مع مادلين ، فقامت تضع في طريقهما المصاعب والمتاعب .

انتهت شهادة الطبيب فوقف جنبا يرتقب تتمة الفصول .

ثم أمر القاضي باستدعاء الخادم العجوز هيلين دافيد من غرفتها المستقلة ، فجاءت تجر جسمها الثقيل وعمرها المديد ، وما وقفت امام القاضي ، حتى وقع نظرها على المرأة المعفرة الشعر الجالسة على المقعد ، فلم تتمالك نفسها ، وصرخت بأعلى صوتها انها هي ... هي بعينها يا سيدي ، واندفعت نحوها ، كما لو كانت تريد أن تقبض على عنقها لتنتزع روحها بيديها ، ولكن الحرس حالوا دونهما ، فقال لها القاضي : على رسلك يا عجوز .. ومن هي؟

قالت : هي انطوانيت يا سيدي، انطوانيت الخياطة، انطوانيت التي تعمل بائعة في أحد المحلات التجارية ، انطوانيت التي كانت تنتظر ابن حلال يتزوجها ولا يدعها فريسة الحياة الوسخة التي تحياها بعض الفتيات ، انطوانيت التي خدعتني مدة طويلة واستغلت غيابي عن المنزل ، وخنقت الطفلة البريئة كلير بيديها الآثمتين .

قال القاضي : يكفي هذا يا هيلين ، وقفي جانبا فقد انتهت الآن شهادتك .

ثم أمر القاضي باستدعاء مندوب شركة الخطوط الجوية البريطانية ، فوقف امام القاضي ، وقال : نعم يا سيدي انها هي السيدة التي اشترت من مكتبنا بطاقات السفر الى امريكا ، الاولى

باسم فرانسوا مارتين ، والثانية باسم مادلين رينو ، والثالثة باسم ابنتها كلير فيشار .

ثم أمر القاضي باستدعاء ممثلة ادارة معهد القلبين الاقدسين . فحضرت فورا وتعرفت على الفتاة جوزفين دامار ، وشهدت امام القاضي بأنها هي التي زارت المعهد وحصلت على كتاب موجه الى السيدة مادلين بالموافقة على قبول ابنتها في المعهد . وتابعت ممثلة المعهد تقول : والسيدة مادلين معروفة عندنا وقد سبق لها ان سجلت لدينا ابنة الحانوتي البقال ، وتعهدت لنا بدفع اقساطها .

ثم امر القاضي باستدعاء جورج مارتين وزوجته فدخل رجل كهل ومعه امرأة عجوز كانا قد تقدما في الصباح الباكر بشكوى الى القاضي يقولان فيها ان ولدهما فرانسوا مارتين كان على خلاف مع زوجته جوزفين دامار وانها خرجت من المنزل منذ صباح امس ولم تعد ، كما لم ينم ولدهما فرانسوا مارتين على عادته في منزله .

فاجأهما القاضي بقوله : ها هو ولدكما فرانسوا وقد كان مزمعا السفر الى امريكا فتأجل سفره ، واما زوجته جوزفين ، فكما تريانها رهينة الاعتقال والتحقيق .

شده العجوزان ، ووقفا مع الواقفين لا يبديان حراكا لفرط الدهشة وشدة الغرابة .

اعلن القاضي انتهاء جلسة التحقيق هذه ، وامر الجميع بالانصراف الى اعمالهم ، كما أمر بنقل المتهمة جوزفين دامار ، الى غرفة منفردة في السجن .

وصبيحة اليوم التالي استدعى المتهمة جوزفين ، وجلس يحقق معها قرابة ست ساعات بدون توقف ، حتى جمع كل ما يريد جمعه من معلومات ، وبالرغم من الادلة الصارخة التي قامت في وجهها من كل حدب وصوب ، فقد أصرت على الانكار وتمسكت بقولها أنها لم تقتل الطفلة كلير ، ولم تخنقها ، وانها غادرت منزل

مادلين ليلا ، بعد ذهاب الخادم العجوز ، دون أن تمس الطفلة او ان تعرف شيئا عنها .

الى هنا انتهى قاضي التحقيق من تحقيقاته ، ولم يجد مندوحة من انهائه بعدما استكمل عناصر البحث والاستقصاء . فقرر سوق المتهمة جوزفين دامار الى محكمة الجنايات بتهمة قتل الطفلة « كلير الفريد فيشار » خنقا بيديها ، ثم القائها في مياه « بانيو » الحمّام كما ارسل للمحكمة اضابير التحقيق كاملة مرفقة بشهادات الشهود ووثائق الاتهام . وأمر بنقل المتهمة جوزفين ، الى غرفة منفردة في سجن النساء ، انتظارا لبدء المحاكمة وسماع كلمة القضاء .

قرأ الناس خلاصة جلسة التحقيق في العدد الذي صدر صباح اليوم التالي من جريدة « لوموند » كما قرأوا خلاصة قرار القاضي باحالة المتهمة جوزفين دامار الى محكمة الجنايات .

الفصل التاسع

في محكمة الجنايات

١

غصت قاعة محكمة الجنايات بالجماهير الغفيرة من جميع الطبقات ، وكان أكثر النظارة من سكان الحي اللاتيني نفسه الذين احتلوا اكثر المقاعد ، لمتابعة سير الدعوى في القضية التي استحوذت على مشاعر الناس وحظيت بكبير اهتمامهم .

جلس فوق قوس العدالة رئيس المحكمة ، وجلس عن يمينه ، ويساره اربعة مستشارين بثيابهم السوداء الموشحة بياقات بيضاء ، يعلو رؤوسهم شعر كثيف شائب ، كان أبيض ناصعا على رؤوس ثلاثة منهم ، كما كان قليل السواد كثير البياض على رأس المستشار الرابع .

وعلى يمين القوس جلس ممثل النيابة العامة ، وأمامه أضابيره واوراقه ، بينما جلس كتّاب المحكمة على مكتب صغير كان قائما الى يسار القوس .

وفي الباحة الصغيرة ، امام القوس جلس المحامون وكلاء الادّعاء والدفاع ، كما جلس في المقاعد الخلفية والشرفات جمهور النظارة وعدد من الشهود .

كان جو المحكمة رهيبا ، يفرض الاحترام والخشية والجلال، وعندما اعلن رئيس المحكمة افتتاح الجلسة ، ساد الصمت وبدا

السكون ، حتى ليظن المرء ان القاعة خالية خاوية ، ليس فيها حس ولا انس ولا حركة .

اعطى رئيس المحكمة حق الكلام لممثل النيابة العامة ، لكي يواجه المتهمة جوزفين دامار ، بما يملكه من وثائق ومعلومات ، تدينها في الجريمة النكراء ، جريمة اغتيال الطفلة البريئة كلير فيشار .

كانت جوزفين قابعة في قفص الاتهام القائم عند الزاوية اليسرى من قاعة المحكمة قريبا من قوس العدالة .

كانت جالسة منكسة الراس ، شاحبة اللون ، بادية الهمّ ، محرومة من نظرة عطف او بسمة تشجيع ، لان عيون الحاضرين جميعا كانت ترمقها بنظرات الحقد والالم استهجانا لجريمتها الشنعاء ، واستكبارا للمتاعب والويلات التي جرتها بجريمتها على السيدة الطيبة البريئة مادلين رينو .

وقف ممثل النيابة واستهل الكلام بتحية رئيس المحكمة والاعضاء ، ثم انطلق بلسانه الذرب ولغته السليمة معددا مراحل الجريمة وادلة ثبوتها الى أن قال :

يا حضرات المستشارين ، ان هذه السيدة القابعة امامكم في هذا القفص ، المتجلببة بجلباب الضعف ، البارعة في التمثيل وتنكيس الرأس ، الواهمة بأنها تستطيع ان تخفي جريمتها ، بما تصطنعه من ذلة وانكسار ، ليست في حقيقتها انسانة من بني الانسان ، بل هي وحش مفترس ، لا يجري في دمه قطرة من دم انسان ، ولا يتأثر حسه بمعنى من معاني الرأفة والرحمة والحنان.

لقد كان مفروضا بهذه السيدة ـ يا حضرات المستشارين ـ ان تكون من سكان الغاب ، تعيش بين الثعالب والذئاب ، لا في المدن ولا مع الناس ، لانها وباء ولا كالوباء ، وعدو يجر على المجتمع افدح انواع البلاء .

ان قصة هذه السيدة يا حضرات المستشارين تتلخص في أن الفيرة التي اكلت قلبها ، حينما علمت بالعلاقة القائمة بين فرانسوا ومادلين ، قد جعلت منها امرأة مجرمة من الطراز النادر ، تحسن حبك خيوط الجريمة ، كما تحسن رسم وسائلها الدقيقة ، لكي يتم تنفيذها بدقة واحكام ، تخفى معهما اوضح المعالم ، ويتيه في بحرانهما جهد المباحث، وتعمى عنهما عيون الحكام وارصاد القضاء.

لقد اتصلت بادىء ذي بدء بالطبيب فيليب شار ، بعدما علمت بأنه كان صديقا حميما للمرأة التي انتزعت منها زوجها .

جاءته شاكية متمارضة .. وعن طريق المعاينة الطبية المتكررة ، جعلت من نفسها صديقة مخلصة لهذا الطبيب ، تحكّ له ـ ببراءة مصطنعة ـ على جرح قديم ، طالما فعل فعله في قلبه وشعوره .

قالت له : ان خالتها كانت تقطن المنزل المجاور لمنزل السيدة مادلين رينو ، وانها عن طريق خالتها سمعت بقصته وقصة مادلين، التي تنكرت له بجحود وكفران ، لكي ترتمي في احضان شاب خليع، عرف بأنه « زير نساء » .

اقنعته بأن المرأة قد تنكبت سبيل الفضيلة والخلق الرفيع ، واصبحت مائعة ليس بينها وبين الرذيلة باب او حجاب .

دافع الطبيب عن المرأة التي كان يعرفها سيدة فاضلة ، ولكنه لم يكن يملك الشعور القوي الذي يمكنه من الرد على الاقوال التي سمعها من جوزفين دامار .

لهذا قرر فيليب ان يقوم بزيارة صديقته مادلين ، فجاء الى منزلها في احدى الامسيات ، وعلى غير العادة ، فتحت له الباب الخادم العجوز ، ودعته للدخول فدخل ، ولما سألها عن سيدتها مادلين أجابت انها خرجت مع صديقها فرانسوا مارتين (! ! !) لقضاء سهرتهما ، وان عودتها للدار لا تتم الا بعد ساعة متأخرة من الليل .

مطّ الطبيب فيليب شفتيه ، وفهم من الخادم العجوز كل ما يريد فهمه ، فعلم ان كل شيء في المنزل قد تبـدل وتغير ، وان الحياة قد أصبحت غير الحياة .

ولما اتصلت به مادلين في صباح اليوم التالي ، ودعته لمعاودة الزيارة في المساء ، لبّى الدعوة التي تعرف فيها علـى فرانسـوا مارتين ، فقرأ في عينيـه وعينيها ان الصلة القائمة بينهما لم تكن صلة صداقة وود ، وانما كانت صلة غرام متأجج وعشق متبادل .

ومنذ ذلك اليوم بدأ كلام جوزفين دامار يدخل الى قلبه كما لو كان كلاما صادقا مخلصا بريئا .

بهذا ـ يا حضرات المستشارين ـ استطاعت جوزفين ان تجر الى حلبة الجريمة اول وسيلة من وسائلها ، الا وهو الطبيب فيليب شار الذي كان يتلقف منها الانباء دون ان يسألهـا عن اسمها او هويتهـا .

بعد هذا انتقلت جوزفين الى الحلقة الثانيـة مـن سلسلة ترتيب الجريمة ، فراحت تطوف أحياء ومنعطفات الحي اللاتيني أملا بالعثور على صيد جديد .

٢

وتابع النائب العام مرافعته فقال :

وفي أحد الايام لمحت جوزفين دامار في طريقها السيدة مادلين رينو واقفة في دكان احد البقالين في الحي اللاتيني ، فوقفت تتلهى بشراء بعض الحاجيات ، وتسترق السمع في نفس الوقت ، فسمعت السيدة مادلين تروي للحانوتي البقال خلاصة قصة ابنته اليتيمة الصغيرة ، وانها عهدت بها الى معهد القلبين الاقدسين وتعهدت

للمعهد بدفع اقساطها كما سمعت الحانوتي البقال يبتهل بالدعاء الى الله لكي يحفظ مادلين وابنتها بعدما امطرهـا بوابل الشكـر وكبير الثنـاء .

بهذا الحديث الذي استرقته جوزفين ، انفتح امامها طريق جديد ، لاحكام حلقات الجريمة ، فحفظته ووعته تماما ، دون ان تعلم مادلين ، او يعلم الحانوتي ان هنالك من كان يسترق السمع او يعدّ عليهم الانفاس .

اما الصدفة التي ظنت هيلين دافيد « الخادم العجوز » بأنها صدفة ، حـين التقـت بجوزفـين دامـار في الحديقـة العامـة « اللوكسمبورغ » وتعرفت فيها عليها ، فانها لم تكـن في الحقيقة صدفة وانما كانت ... خطة .

اجل ! يا حضرات المستشارين .. كانت خطـة مـن خطط جوزفين دامار التي كانت تعرف شكل الخادم العجوز من كثـرة ما ترددت على الحي اللاتيني ، ومن كثرة ما مرت من امام بيـت مادلين رينو ، فتتبعت يوما هذه الخادم ، حتى صادفتها « !... » في حديقة اللوكسمبورغ فجلست الى جانبهـا تجاذبهـا اطراف الحديث ببراءة مصطنعة وسذاجة مزيفة ، فخدعتها واوهمتها بأنها تعمل « بائعة » في أحد المحلات التجارية ، وانها لا تحب الحيـاة الوسخة التي تحياها بعض الفتيات ... وانها تنتظـر ابن حلال تتزوجه فيكون شريك حياتها ...

وهكذا ترون ان هذه الحية الرقطاء استطاعت ان تتسلل الى قلب هيلين دافيد ، وان تستحوذ على عطفها ، وان تنـال ثقتها فرافقتها الى المنزل ... ودخلت ـ كزائرة ـ من باب الخدم ، وسرعان ما ابدت استعدادها لخياطة اثواب هيلين او اصلاحها ، وسرعان ما سيطرت عليها وجعلتها تثق بها ، لكي تكثر من زياراتها وتتردد عليها في الليل وفي النهار .

بهذا دخلت جوزفين الى قلب الدار التي كان يأوي اليهـا

زوجها وعشيقته ، وبهذا اصبحت على مقربة منه ، تراه من خصاص نافذة مخدعه وتعدّ عليه وعلى مادلين الحركات والانفاس .

اسمحوا لي ــ يا حضرات المستشارين ــ ان اؤكد لكم ان هذه السيدة المجرمة ، ليست مجرما عاديا ، بل هي مجرمة من النوع الخطير النادر ... تصوروا معي مدى رباطة جأشها ، وقوة اعصابها ، حين كانت ترى زوجها مع امرأة ثانية في مخدع خال ، ثم لا تفقد سيطرتها على أعصابها ، بل تبقى صامدة صابرة ، حتى تودعهما في الساعة التي يخرجان فيها الى قضاء سهرتهما خارج الدار .

انها حقا اعصاب فولاذية !

اجل !.. انها اعصاب فولاذية ، ولكنها انهارت كأبشع ما يكون الانهيار بعدما وقعت المجرمة بين أيدي العدالة ، وتحت سلطان التحقيق ، ذلك لانها انطلقت من تلقاء نفسها ، تعدد مراحل جريمتها ، وتصف بدقة حوادثها وان هذا الذي نقدمه اليكم من معلومات ، ليس مستنبطا من تحريات التحقيق وانما هو من اعترافاتها التي ادلت بها دون اي ضغط او اكراه .

لقد تبين لنا ــ يا حضرات المستشارين ــ ان المجرمة الخطيرة قد اعدت اكثر وسائل الجريمة ، ولم يبق عليها سوى وضع الخطة لمتابعة التنفيذ .

هنا اسمحوا لي ــ ايها السادة ــ ان اقرأ عليكم صفحة مما كتبته هذه المجرمة بخط يدها من اعترافات ، قالت :

بعد ان اصبحت ضمن الدار ، وبعد ان شعرت بالحقد العميق على زوجي ، وبالالم المرير من عشيقته ، ثارت في نفسي بواعث الجريمة ، لكي أروي حقدي المتأجج وأشفي المي المرير .

فكرت واطلت التفكير ... ثم قرّ رأيي على ارتكاب جريمة الصقها بمادلين وفرانسوا ، فاحمّلهما معا تبعة هذه الجريمة ، واقضي على عشقهما الذي كان سببا في تعاستي وشقائي ، وأفرق

بينهما فراقا ابديا ، سواء ذهبا بعد ذلك الى السجن او الى القبر .

ووضعت الخطة ، وركّزت تصميمها ، ثم عزمت على التنفيذ .

ذهبت قبل كل شيء الى شركة الخطوط الجوية البريطانية B. O. A. C. فاشتريت منها ثلاث بطاقات سفر الى امريكا مكشوفة التاريخ ، الاولى باسم فرانسوا مارتين ، والثانية باسم مادلين رينو ، والثالثة باسم كلير فيشار .

ثم ذهبت الى معهد القلبين الاقدسين بصفتي موفدة من قبل مادلين رينو وحصلت من ادارته على كتاب موجه للسيدة مادلين ينص على موافقة الادارة على قبول ابنتها كلير كطالبة داخلية في المعهد .

هنا توقف ممثل النيابة العامة عن الكلام ، ومدّ يده وتناول رشفة من كأس الماء الموضوع امامه ، وتابع الكلام وقال :

يا حضرات المستشارين ، ان هذا الذي سمعتموه هو شيء من اعترافات المجرمة جوزفين دامار ، وكم كنا نتمنى ان تتابع المجرمة اعترافاتها لكي توفر علينا وعليها وقتا لن يكون لها أي فائدة من وراء ضياعه ، ولكنها ــ على ما يبدو ــ آثرت ان تسلك مسلك التضليل ، ظنا منها ان هذا العمل يضمن لها النجاة من حبل المشنقة ــ ألا ساء ما تفكرون به يا أيها القتلة المجرمون ..

عاد ممثل النيابة الى الاوراق التي بين يديه وقال :

ان المجرمة حاولت ان تتنصل من جريمتها الشنعاء فاسمعوا اليها ــ ايها السادة ــ وهي تتابع اعترافاتها فتقول :

بعد ان هيأت عناصر الجريمة ، قررت تنفيذها ... ولم تكن خطتي ابدا اغتيال الطفلة البريئة كلير بدليل انني ذكرت اسمها في بطاقة السفر مع والدتها الى الولايات المتحدة ، وانما كنت أفكر باغتيال الخادم العجوز هيلين دافيد ، كما كنت أفكر باصطناع

سبب معقول ، يحمل فرانسوا ومادلين على التخلص منها ، بينما أكون انا قد دسست لها السم وقضيت عليها ، فيقع فرانسوا ومادلين العاشقان بين يدي القضاء ، فتقوم ضدهما ادلة كثيرة ، اولها السبب المعقول الذي كنت أفكر فيه ، ولا أوفق بالحصول عليه ، وثانيها استعدادهما للسفر الى امريكا ببطاقات السفر المحجوزة باسميهما واسم كلير ، وثالثها اثارة الحقد الكامن في قلب الطبيب فيليب شار الذي سيكون تلقائيا عنصر اثبات في ارتكاب الجريمة ، سواء شعر بذلك ام لم يشعر .

هذه هي خطتي التي كنت وضعتها لتنفيذ الجريمة ، ولم أفكر مطلقا بالطفلة كلير ، ولم أجعلها موضوعا في صلب الجريمة ..

ولكنني ويا للاسف فوجئت صباح الثالث من ايار بنبأ اغتيال الطفلة كلير في مياه حوض الحمام ، فاسقط في يدي ورحت افكر فيما يجب ان اصنع .

٣

قالت جوزفين : فكرت كثيرا بعد سماع هذا النبأ ، كما فكرت بما يمكن ان يجرّه على موضوعي الاصلي من مضاعفات ..

لكن زمن التفكير لم يطل ، لان اعتقال مادلين رينو واتهامها بقتل طفلتها ، قد فتح امام عيني ابواب الامل .. ثم قلت لقد تحقق غرضي عن طريق آخر ، وان هذا الذي كنت رجوته وأمّلته قد وقع ، دون ان اشترك فيه ، عندئذ سعيت الى ايصال المعلومات اولا باول الى الطبيب فيليب شار ، وكنت قبلا قد اعلمته بعزم العاشقين على السفر الى امريكا ، وكان ذلك بعد شرائي بطاقات السفر ، ولما وقعت الجريمة أعلمته بقصة معهد القلبين الاقدسين ، ثم طلب مني كتاب الادارة فقدمته له ، ثم أوصلت بطاقات السفر

الى القاضي ميشيل ، ونجوت منه بأعجوبة .

بعد هذا قال ممثل النيابة العامة :

ان المجرمة تريد ان تضللنا ، وهي لا تضلل الا نفسها ، فبعد ان اعترفت بجميع تصرفاتها التي رافقت الجريمة قبل وقوعها وبعد وقوعها ، لجأت الى فكرة شيطانية تريد بواسطتها ان تتخلص من براثن العقاب .

لقد قالت المجرمة الخطيرة انها لم تكن تريد ان تغتال الطفلة كلير بدليل أنها ذكرت اسمها في بطاقة السفر وسجلتها في معهد القلبين الاقدسين ..

وهذا دليل متنافر اذا صح ان نناقشه فاننا لا نرى فيه أكثر من وسيلة صغيرة من وسائل التعمية التي يلجأ اليها المجرمون ، ليضيّعوا على التحقيق سبله ووسائله .

أريد ان اسأل المجرمة جوزفين :

لماذا سجلت اسم الطفلة كلير في معهد القلبين الاقدسين اذا كان مفروضا بها أن تسافر مع امها الى امريكا !

ثم أعكس السؤال فأقول : لماذا وضعت اسمها على بطاقة سفر اذا كان مفروضا بها ان تودع في معهد القلبين الاقدسين ؟!

هنا ــ ايها السادة ــ مفتاح الجريمة .

هذا الخبط بما فيه من تنافر وتناقض يدلنا دلالة واضحة على ان المجرمة قد خانها الذكاء في لحظاتها الاخيرة ، لان هذا الذي ظنّته بأنه يضلل التحقيق لم يفدها شيئا بل كشفها على حقيقتها .

لقد تعودنا يا حضرات المستشارين ان نسمع من المجرمين كل كلمات التبرؤ من جرائمهم ، وتعودنا على خداعهم وتضليلهم ، ولكننا كنا دائما مطمئنين الى ضمائرنا واثقين من أحكامنا ، فلم ننخدع ولم

ننحرف بل بقينا خدام الحق الاوفياء ، وجنود العدالة المخلصين ،

يا حضرات المستشارين

انني باسم العدالة والحق اطلب من محكمتكم الكريمة ان تنزلوا اقصى العقوبة في هذه المجرمة الخطيرة ، وأملي ان يكون اعدامها تكفيرا عن الجريمة البشعة التي ارتكبتها، في ازهاق حياة طفلة بريئة ، لم تجن بعد من عمرها خيرا ولا شرا .

طهّروا المجتمع يا حضرات المستشارين من امثال هذه الجراثيم الفتاكة ، التي لا تجد بين جوانحها ، أمام اغراضها الحقيرة ما يحملها على التخلق بالخلق الكريم او النظر الى الحياة بالنظرة الانسانية السليمة .

طهّروا المجتمع منها ، فهي مستنقع موبوء لم تنبت على حافته الا نباتات السموم ، ولم تعش فيه الا الجراثيم .

اعدموها فهي وباء خطير ، ان تركتموه ، او تهاونتم في القضاء عليه ، سيصبح المجتمع كله في خطر ، وسيصبح عرضة لتفاقم الشر وانتشار الفساد ، وأي شر واي فساد اقسى من أن يجعل الانسان نفسه حاكما ومحكوما بآن واحد ، يقتل الناس ، او يفجعهم في أموالهم أو اولادهم او ما يملكون ، كلّما خطر له ان يستهدف غرضا او يسعى الى غاية .

ثم ماذا ؟! اي غرض هنالك ؟! واي غاية هي التي حملت جوزفين دامار على ارتكاب جريمتها ؟

أيجوز ــ لمجرد ان رأت زوجها على علاقة بامرأة غيرها ــ ان لا تفكر ابدا بوسيلة غير وسلة الجريمة ؟! أويجوز لاي انسان ــ سواء كان صاحب حق ام لم يكن ــ ان يسعى الى تحقيق غرضه مباشرة وبوسائله الخاصة ... ثم بجرائمه الغادرة الدنيئة .

يا حضرات القضاة

ان صوت الضمير المتجسد في أعماقكم ، يناديكم في هذه

الساعة الانسانية الرهيبة ، لكي ترفعوا الى مرتبة القصاص العادل هذه المرأة المجرمة ، لتنال جزاء الاثم الذي اقترفته والجريمة التي ارتكبتها .

فاوقدوا مصباح الحق ، واخدموا منبر العدالة وأمروا باعدام هذه المرأة المجرمة العابثة ، والله معكم .

لم يكد ينتهي ممثل النيابة العامة من القاء مرافعته حتى دوت القاعة بالتصفيق ، اعجابا ببلاغته وبيانه ، فضرب القاضي بمطرقته على المنضدة وأمر الحاضرين بالسكوت .

ثم عكف على قائمة اسماء الشهود ، فكان يستدعيهم شاهدا شاهدا ، حتى مضى على سير الدعوى وقت طويل ، عندئذ قرر تأجيل النظر فيها الى يوم الاثنين القادم .

عادت المجرمة السجينة الى السجن ، وعاد الناس الى دورهم او اعمالهم منتظرين يوم الاثنين ، ليعاودوا حضور الجلسة ويتابعوا مراحل الدعوى الاليمة .

الفصل العاشر

الغموض الرّهيب

١

انعقدت المحكمة يوم الاثنين ، وتابع القاضي الاستماع الى بقية شهود الاثبات ، وكان أول شهود اليوم ، الطبيب فيليب شار الذي ادّى شهادة مطولة لم تخرج في مضمونها عما أورده النائب العام ، اذ عدد فيها مراحل معرفته بالمتهمة جوزفين دامار ، وكيف كان يتلقى منها انباء غرامه القديم ، ثم معلوماته المتصلة عن سير الجريمة وخلص الى القول بانه ليس لديه ما يقوله بعدما انصبت الادلة الصارخة ، على ادانة المتهمة جوزفين دامار .

اما الخادم العجوز هيلين دافيد فقد بدت اثناء تأديتها شهادتها ، كما لو كانت ممتلئة غيظا وحقدا والما من جوزفين دامار، خصوصا بعد ان علمت ان المتهمة قد فكرت باغتيالها هي ، قبل اقدامها على اغتيالها الطفلة البريئة ، فكان هذا دافعا جديدا يزيد من حقدها على المجرمة السجينة ، ويؤكد على المحكمة ان تنزل بها اقصى العقاب .

ولم يفت الخادم العجوز ان تعترف بأن جوزفين قد خدعتها بما اظهرته من طيب وبراءة ، تمكنت بواسطتهما من التسلل الى داخل الدار ، التي حبكت فيها الخيوط الاولى للجريمة الشنعاء .

ولما نودي على الحانوتي البقال ، وقف بين يدي المحكمة دامع

العين كسير القلب ، ولم يتحدث بشيء عن جوزفين دامار بل قال انه لا يعرف عنها شيئا ، وانما تحدث واسهب في الحديث عن معرفته بالسيدة مادلين رينو ، وخلقها الرفيع ، وسمعتها الحسنة، وعاطفتها الثرة ، واتى على ذكر ابنته ، وتعهد السيدة مادلين برعايتها ، والانفاق عليها بعد ما قامت بتسجيلها في معهد القلبين الاقدسين .

وجاء دور الصحفي جورج سارتر الذي رافق سير الجريمة منذ لحظاتها الاولى فادى شهادة مطولة استغرق الادلاء بها ساعة ونصف الساعة ، اورد خلالها كل ما في جعبته من معلومات وملاحظات ، ثم انتهى الى جزء خطير حين قال :

واخيرا .. ارجو ان تسمحوا لي يا سيدي القاضي بابداء الملاحظة التالية :

انني ـ كما تعلمون ـ تتبعت سير هذه الدعوى منذ لحظتها الاولى ، وحينما قامت الادلة الكثيرة ، على ان السيدة مادلين رينو والدة الطفلة القتيل هي المتهمة ، كنت وحدي مقتنعا بأن أمًا طيبة كهذه الام ، لا يمكن ان تقتل ابنتها بيدها مهما كانت الاسباب ، ولهذا ساهمت مساهمة كبيرة في مجرى التحقيق بغية الوصول الى كشف النقاب عن هذه الجريمة المنكرة ، وأعتقد أنه كان لجهدي الخاص ، وتحرياتي الصحفية ، اثر كبير في الكشف عن الكثير من النواحي الغامضة .

ولكن ...

وبعد أن انتهينا من مرحلة التحقيق ووصلنا الى ساحة القضاء ، وبعد ان رأينا ادلة كثيرة تنصب على المتهمة الجديدة ، جوزفين دامار اقول : بعد هذا ، هل نستطيع ان نعتبر انفسنا ناجحين اذا طوقنا عنق جوزفين دامار بحبال الجريمة ، وهل تكون ضمائرنا مرتاحة اذا البسناها ثوب الجريمة ؟..

اسمح لي ـ يا سيدي القاضي ـ وانا لا ارفع نفسي الى منصة

القضاء لأناقش القضية من زاويتها القضائية ، لان هذا ليس من حقي ، وانما ابقى في مكاني كشاهد ـ وشاهد فقط ـ ولا يجوز اعتباري مع شهود الاثبات ، ولا مع شهود الدفاع ، لانني لا أكتم المحكمة الكريمة ، أن الشعور الذي كان يخالجني حينما كانت ادلة الاتهام منصبة على مادلين رينو ، هو نفس الشعور الذي يخالجني الان ، حينما ارى ادلة الاتهام منصبة على جوزفين دامار ، واعتقد ان جوزفين دامار ، ليست هي المجرمة ... ولا أشك في أن هذه الجريمة ، كانت وما تزال تدور في حلقة غموض رهيب ، فكيف السبيل الى تحطيم هذا الغموض ، للكشف عن هوية القاتل ؟!

هذا هو شعوري يا سيدي ـ كشاهد رافق هذه القضية وتتبع مراحلها ، وتحضرني في هذه الساعة ، وانا أحدق ببصري في وجه السيدة جوزفين ، وهي قابعة في هذا القفص المخيف ، منكسة الرأس ، بادية الهم ... تحضرني الآن يا سيدي قصة ذلك القصاب « اللحام » الذي انتهى من ذبح ذبيحته ، في الزمن القديم وغادر دكانه ، قاصدا احد معارفه من جيرانه ، وهو لا يبعد عنه اكثر من مئة متر ، ولما دخل عليه ، وبيده سكينه التي لا تزال تقطر من دم ذبيحته ، وجده ملقى على الارض ، ودمه يسيل بغزارة من عنقه المذبوح من الوريد الى الوريد .

وحينما كان يهم بمغادرة الدكان مسرعا ، كانت قد وصلت ثلة من رجال الشرطة ، فاعتقلته فورا ومعه ابلغ دليل جرمي ، هو السكين التي تقطر دما !!!

وجرت محاكمة الرجل يوم لم تكن معروفة طرائق تحليل الدم ، وتصوير البصمات ، وجمع الادلة القضائية ، فما كان من اللحام المسكين الا ان وقف امام المحكمة ، معترفا بانه هو القاتل ، لانه اعتقد بان الادلة جميعها قد انصبت عليه بشكل لا يحتمل الاخذ والرد، فهو قد اعتقل امام الرجل القتيل ، وفي نفس دكانه ، وحينما

كانت سكينه تقطر دما ، فأي انكار يفيده ، وأي دليل يستطيع ان ينقذ حياته ؟ ! .

٢

وتابع جورج سارتر حديثه فقال :

ولم يكن امام المحكمة بد من اخذ الرجل باعترافه ، فحكمت عليه بالاعدام جزاءا وفاقا لما اقترفت يداه ...

وجاء يوم تنفيذ الحكم ، فنصبت اعواد المشنقة في ساحة البلدة العامة ، وجيء بالرجل اللحام ، مصفد اليدين ، معصوب العينين ، بينما تجمع الناس من كل حدب وصوب ، ليشهدوا تنفيذ حكم القضاء ...

ورفع الرجل الى منصة المشنقة ، ووضع الحبل بعنقه ، وفي اللحظة التي همّ فيها جزار المشنقة بسحب المنصة من تحت قدم المحكوم ، لكي تتأرجح جثته في الهواء ... في تلك اللحظة ، سمع الناس صوتا مزمجرا ارتعدت له فرائص الناس جميعا ، واذا به يقول : قفوا ... لا تعدموه ... انه بريء ... بريء ... وانا هو القاتل ... انا هو القاتل فخذوني ...

وقع الهرج والمرج ، وارتبك الناس جميعا ، وصدرت الاوامر على الفور بفك وثاق المتهم المحكوم ، وانتزاع الحبل من عنقه ، واعادته الى السجن مع منفذه الذي وصل اليه في اللحظة الاخيرة..

لم يطل الامر بالقضية ، فقد اعيدت المحاكمة ، وتبين ان اللحام قد بنى اعترافه على ان جميع الادلة ضده ، ولا فائدة من التبرؤ والانكار ، واما القاتل الحقيقي فقد صعب عليه أن يرى بريئا يساق الى الموت بجريرته هو ، فاعتبر نفسه مسؤولا عن دم

هذا البريء امام الله ، اضافة الى مسؤوليته أمامه عن الجريمة الاولى التي ارتكبها بيديه ، فاستيقظ صوت ضميره بلحظة ، وصاح وسط الجموع ... قفوا ... قفوا ... لا تعدموه ... ليس هو القاتل ، بل انا ...

فلو أعدم هذا اللحام البريء — يا سيدي — لكان دمه معلقا في رقاب الانسانيين جميعا ، لا في رقاب اعضاء المحكمة وحدهم ، لان من العار على الانسانية ، ان يسفك دم بريء واحد مهما كانت ظروف الجريمة غامضة ، ومهما تحايل المجرم الفعلي في اختراع اساليب التحايل والفرار ، لان فرار الف مجرم من وجه العدالة في الف قضية اجرامية ، افضل بالف مرة من سفك قطرة دم واحدة ، من عنق انسان بريء ، مهما دارت حوله الادلة ، او انصبت عليه وثائق الاتهام .

كان أحد كبار القضاة ، مارا في أحد شوارع لندن، يتنزه في هدأة الليل على ضفاف التايمز ، وكان فكره شاردا يسبح في احلام حلوة، راحت تداعب مخيلته في تلك الليلة القمراء ، فما شعر ، الا بيد خفيفة تربت على كتفه الايسر من ورائه ، فالتفت اليه مذعورا ليرد التحية والسلام ، فاذا برجل يقول له : (ألست أنت القاضي فلان ؟) قال : نعم ،

قال الرجل : وانا اسمي فلان ... لقد سبق لك ان اصدرت علي حكما بالسجن عشرين سنة لتهمتي في جريمة قتل ، وقد أمضيت مدة الحكم كلها في السجن ، وخرجت منه منذ سبعة ايام ...

وها أنذا الآن ، كما ترى أمامك ، دخلت السجن شابا فتيا ، وخرجت منه كهلا مريضا ، لا املك من وسائل العيش عقارا ولا مالا ، وكل الذي أملكه وثيقة سوابق تشهد أني من المجرمين ، وأحد نزلاء السجون ...

وتابع الرجل حديثه مع القاضي الكبير وقال له :

والشيء الذي أحب أن أقوله لك ، بعد ان أنهيت مدة حكمي ، ومع علمي بأن قولي لا يفيدني شيئا في أمر دنياي ، فانني أحب أن أقول ... أريد ان أقول لك يا سيدي أنني بريء ــ شهد الله ــ كل البراءة من تلك الجريمة ، وليس بيني وبين أصحابها ومرتكبيها أي علاقة أو معرفة ، وان حكمك علي كان حكما ظالما لا يستند الا الى أدلة مصطنعة ، ليس بينها وبين الحق والواقع صلة او نسب .

والآن لا أريد أن أصنع بك شيئا ، ولا أريد أن أقول ما يهينك او يؤذيك ، وحسبي ــ اذ أستودعك الله ــ ان أقول لك بأنني تركتك الى ضميرك لكي يقتص لي منك ، ولئن لم يقم ضميرك بواجب الاقتصاص ، فسأقف امام الاله الديّان ، يوم يوّفى كل مخلوق حقه بيمينه .

اذهب ... اذهب الى ضميرك ، لا سامحك الله ...

ذهب القاضي ــ يا سيدي القاضي ــ الى ضميره ، وانّى لضميره ان يرتاح او يستقر ، وهو الذي علم الساعة ، انه كان سببا في سجن انسان بريء ، عشرين سنة وخرج بعدها عضوا عاطلا ، يعيش عالة على المجتمع وبني الانسان ...

ذهب القاضي الى ضميره ... وعاد الى بيته فلم يستطع ان ينام ، واشتد عليه الهم ، واشتد عليه الارق ، واشتد عليه الالم ، فانتابته الوساوس ، وأقضت مضجعه الخواطر والاوهام ، الى أن بلغ مرحلة اليأس ، فالمرض ، فالانهيار ، وما هي الا ايام قليلة ... حتى انتقل من هذه الحياة الدنيا ، وفاضت روحه الى بارئها ، تكفيرا عن ظلم ، نزل بسببه على بريء ، وسعيا وراء عفو قد يخلصه من عذاب الضمير ...

وتابع جورج سارتر يقول :

والآن ، أعيذ محكمتكم الكريمة ــ يا سيدي ــ ان تكون سببا في نزول الظلم على انسان بريء ، وكل الذي أرجوه هو ان تسلكوا كل سبيل للكشف عن هوية مرتكب الجريمة الفعلي ، وحينئذ يكون حكمكم صوتا من اصوات الله ، تستقر به دعائم الحق ، وترتاح له أقواس العدالة ...

٣

انتهى جورج سارتر من اداء شهادته ، فلم يأت فيها بجديد ، وانما خلق أمام المحكمة مشكلة جديدة ، لا تستند الى وقائع مادية ، ولا يقوم عليها دليل حسي ، لأنها كانت تدور مع العواطف او حول الشعور ، ولكن الذي لا شك فيه هو ان جو المحكمة قد تأثر كثيرا بشهادة سارتر ، كما بدا على أعضاء المحكمة أنهم أخذوا بكلماته ، وقامت في أعماقهم رغبات جامحة ، تستهدف التحري العميق لمعرفة وجه الحق .

***

ثم نودي على الشيخ العجوز ، والد فرانسوا مارتين ، وبعده على السيدة العجوز والدة فرانسوا ، فسمع منهما الحاكم شهادتهما ، وهي وان كانت تبدو بمظهر من يعطف ويحن على المتهمة، جوزفين، الا أنها أي شهادة العجوزين، وصفتالتغيير المريع الذي طرأ على حياة جوزفين في فترتها الاخيرة وصفا دقيقا ، اذ كانت عصبية المزاج ، بادية الاضطراب ، كثيرة الخروج من البيت ، كثيرة العودة اليه ، كثيرة السهر خارج البيت ، الى ما بعد منتصف الليل احيانا ، او الى ساعات الصباح الاولى احيانا اخرى ...

***

كانت الشهادة الآن ، شهادة فرانسوا مارتين ، عشيق السيدة مادلين رينو ، وبدلا من ان تكون شهادة اثبات ، فقد كانت شهادة دفع ، لان مشاعر الرجل قد تبدلت ــ على ما يبدو ــ بعد سماع شهادة الصحفي سارتر تبدلا تاما ، او ان عوامل المودة والرحمة

التي كانت قائمة بينه وبين زوجته جوزفين منذ القديم قد استيقظت في هذه الساعة ، فاذا به يرفع زوجته جوزفين الى مصاف القديسات المترهبات ، بما يعرفه عنها من خلق ووداعة ونفس طيبة بريئة ، ويستبعد ان تقدم – هي بالذات – على ارتكاب جريمة مهما كانت الاسباب ، وعزا اعترافها بترتيب بعض الخيوط لارتكاب جريمة ، بأنه نزوة من نزوات الغيرة ، لا يمكن ان تتحول الى فعل مادي مهما كان السبب .

وذكر فرانسوا للمحكمة ، ان الخلاف الذي كان مستحكما بينه وبين زوجته اثناء علاقته بالسيدة مادلين ، هو نفس الخلاف الذي كان يتفاقم ويشتد قبل علاقته بالسيدة مادلين ، أي كلما وصل الى سمعها علاقة تقوم بين زوجها وبين امرأة جديدة ...

واما ما يتعلق بالافعال المادية التي باشرتها جوزفين بيدها كتسللها الى بيت مادلين ، تعرفها على هيلين ، او كشراء بطاقات السفر ، او ككتاب معهد القلبين الاقدسين ، فان هذه الاعمال كلها ليست أكثر من استجابة آنية ، لنزوات الغيرة التي أكلت قلبها ، وهي كلها تدل على فوضى في الافكار ، ليس بينها وبين خطط التنفيذ أي تدبير أو تنسيق ...

وبينما كان فرانسوا منطلقا بأداء شهادته ، رأى الناس جوزفين دامار ، تتحامل على نفسها وهي في قفص الاتهام ، فتقف وقفة العاجز المنهوك ، ثم تصيح بصوت متهدج يخنقه البكاء وتربكه الدموع ، وتقول :

لا ... لا تصدقوه ، انه يكذب ، انني لا أنتظر الرحمة على يديه ... لا تصدقوه لا ... لا هو هو ... بل انا ... انا القاتلة ...

ثم بدت عليها فجأة ، سيماء القوة والنشاط ، متسمة بسيماء الحقد والضغينة والالم ، وصاحت مرة اخرى ، لا تصدقه يا سيدي القاضي ... لا تصدقهم كلهم ، كلهم كاذبون ... فانا ...

انا هي القاتلة ... انا قتلت الطفلة كلير فيشار ، وانا خنقتها بيدي هاتين ، ثم القيتها في مياه حوض الحمام ... وماذا تريدون بعد ذلك .

نعم ... انا هي القاتلة ... لقد اعترفت واسترحت ، فافعلوا ما انتم فاعلون ...

بعد ذلك تهاوت الفتاة على مقعدها ، محطمة الاعصاب ، فاقدة الجأش ، بادية الاضطراب ، وكان جسمها يرتعش ارتعاشا محزنا .. بينما وقف جمهور النظارة بحزن وصمت يستمع الى تفصيلات هذه المأساة الغامضة الرهيبة ... كانوا صامتين جميعا ، كأن على رؤوسهم الطير ، وكان أعضاء المحكمة مع رباطة جأشهم ، ذاهلين حائرين ، فلم يملك الرئيس الا أن يعلن رفع الجلسة للاستراحة ، وبينما خرج الجمهور من قاعة المحكمة ، أمر الرئيس بتوفير الراحة وبعض الهدوء الى المتهمة جوزفين دامار ، التي نقلت فورا الى غرفة خاصة ، مددت فيها على السرير ، وأعطيت بعض المنعشات والمهدئات ، لتستعيد وضعها الطبيعي .

بعد ثلاثين دقيقة ، عادت هيئة المحكمة الى عقد جلستها وأخذ كل انسان مكانه ، وبكل رزانة وهدوء ، وقفت جوزفين دامار وهي في قفص الاتهام ، وقفت واستأذنت القاضي لكي يعطيها حق الكلام ، ففعل ، وسمح لها بالخروج من القفص والمجيء الى امام المنصة ، وعندها أحنت رأسها بالتحية لاعضاء المحكمة ، ثم قالت :

سيدي القاضي ، حضرات المستشارين :

لا أعتقد ان هناك فائدة من الاخذ والرد ، والسعي الى تطويل أمد المحاكمة ، أو اضاعة وقتكم بسماع شهادات الشهود ، او اقوال محامي الاثبات أو محامي الدفاع ، لا أرى ان هنالك فائدة من وراء هذا كله ، لانني بعد ان عدت الى ضميري في أعماقه ، رأيت ان اعترف لكم بكل شيء ، وها أنذا ، واقفة أمامكم ، وانا متمتعة

بكامل قواي العقلية ، والبدنية ، والفكرية ، أقول لكم بملء ارادتي أنني عزلت المحامي الذي كنت اتفقت معه على تولي الدفاع عني ، عزلته ، ولا أسمح له بقول أي كلمة في موضوعي ، ثم اني أعلن على رؤوس الاشهاد ، أنني أنا التي قتلت الطفلة البريئة كلير فيشار ، ارواء للحقد الذي بلغ مبلغه من نفسي وطمعا في أن أتمكن من الصاق هذه الجريمة بالسيدة مادلين وزوجي فرانسوا ، لعلي أفرح بعد ذلك بالتفريق بينهما ، سواء كان هذا التفريق بالموت ، أو بالسجن ، ويبدو ان الله لم يرض ذلك ، فأوقعني أنا بحبال جريمتي ، لهذا يسرني كل السرور — يا سيدي — ان أعترف أمامكم بهذا الواقع ، لكي تصدروا عليّ الحكم العادل الذي يتناسب مع فظاعة الجرم الذي ارتكبته بحق الطفلة البريئة أولا ، وبحق عاشقين حبيبين متيمين ... ثانيا .

أرجو — يا سيدي — ان تعلنوا انتهاء المحاكمة وان تصدروا حكمكم العادل ، وثقوا بأنني سأكون شاكرة صابرة ، وسأتلقى الحكم بابتسامة الرضى واطمئنان الايمان .

قالت جوزفين هذا القول ، واستأذنت بالعودة الى مكانها في قفص الاتهام ، وحينما كانت تسير باتجاه القفص ، كانت عيون الحكام والمحامين والنظارة ترمقها بدهشة وحيرة وتحدجها بنظرات الحزن والالم ، بينما ساد القاعة جو رهيب ، وسيطر على الحاضرين شعور غريب .

٤

لا شك في ان المتهمة جوزفين قد أوقعت المحكمة في ارتباك غريب ، وكان بود رئيس المحكمة ان يعلن رفع الجلسة ، ليتخلص هو وزملاؤه من هذا الجو المحموم الذي بدا في هذه الجلسة ، اولا

وقوف السيد بيير ميلر ، وهو محامي السيدة جوزفين دامار الذي استأذن في الكلام وقال :

لم يعد من حقي يا سيدي ان أتكلم في الدفاع عن السيدة جوزفين في هذه الدعوى ، بعد ان عزلتني علنا امام محكمتكم الكريمة ، ولكنني أعتقد ان من حقي أن أتقدم الى محكمتكم الكريمة بصفتي « شاهدا » أملك الكثير من المعلومات المتعلقة بهذه القضية ، ولا أكون خادما للعدالة ، مدافعا عن الحق ، اذا بقيت هذه المعلومات محبوسة في صدري ، ولهذا أرجو تسجيل اسمي مع شهود الدفاع لكي أدلي بمعلوماتي اظهارا للحقيقة وخدمة للعدالة .

قررت المحكمة اجابة طلبه ، وسجلت اسمه مع الشهود .

ثم أعطى الرئيس حق الكلام لممثل النيابة العامة الذي وقف وقال :

ان ما قالته السيدة جوزفين دامار ، قد ألقى نورا ساطعا على قضيتنا هذه ، وهو بلا شك سيوفر على المحكمة الكثير من الجهود ، ولكنني أحب أن الفت النظر الى ان قانون العقوبات لا يسمح بمحاكمة المتهم الا بوجود محام او أكثر يتولون الدفاع عنه ، وبما ان السيدة جوزفين قد عزلت الآن محاميها ، فان استمرار السير بالدعوى يعتبر مخالفا للقانون ،

لهذا ، أقترح على المحكمة الكريمة ان تقوم هي بانتداب محام يتولى الدفاع عنها ، تطبيقا للمواد ١١٧ ، و ١١٨ و ١١٩ من قانون اصول المحاكمات الجنائية ، هذا اذا كانت السيدة جوزفين مصرة على عزل محاميها ، والا فبامكانها ان تسحب عزلها لكي يتولى محاميها مهمة الدفاع عنها .

سأل الرئيس المتهمة عن موقفها من هذا الموضوع فقالت :

استغرب يا سيدي ان يلجأ النائب العام الى تطويل القضية ، ومتابعة الاخذ والرد بشأنها ، وهو الذي كان يقول في الجلسة

السابقة انه تعود على سماع الكلمات التي يحاول أن يتبرأ بها المجرمون من جرائمهم ، وانه عرف اساليب خداعهم وتضليلهم ، ولا تنسوا يا سادة بأنه هو نفسه طالب محكمتكم الكريمة باعدامي تطهيرا للمجتمع مني ، لانني مستنقع موبوء ، لا تنبت على ضفافه الا السموم والجراثيم ، فما باله الآن يلجأ الى المماطلة والتسويف ، بعد أن وفرت عليه وقته وجهده واعترفت له بما يريد ، أو بأكثر مما يريد .

لا يا سيدي لا ... لن أعود عما قلته ، واني مصرة على عزل المحامي ، ومصرة على الاعتراف الذي اعترفت فيه بارتكاب الجريمة، وانا لا انتظر الآن سوى اللحظة الحلوة الحاسمة ، التي اسمع فيها قراركم بصدور الحكم .

عاد النائب العام الى الكلام فقال : اشكر للسيدة جوزفين مساهمتها الفعالة في خدمة العدالة والحق ، ولكن الموضوع ليس موضوع اعتراف وحسب ، اذ نحن امام نص قانوني لا بد من احترامه والتقيد بمضمونه ، وهذا النص يقضي بوجوب تعيين محام عن المتهم من قبل المحكمة اذا لم يتول المتهم تعيين محاميه بنفسه ، فاما أن تعود المتهمة عن عزلها محاميها واما أن تقوم المحكمة بتعيين محام عنها ، وبغير هذا لا يمكن استمرار السير برؤية هذه الدعوى .

ولما أصرت جوزفين دامار على موقفها من محاميها اعلن لها رئيس المحكمة ان بامكانها ان تطلب محاميا آخر غير السيد ميلر اذا كانت لا تريده شخصيا ، فقالت : لا يا سيدي انه في نظري خير المحامين ، ولكنني لا أطلب محاميا أصلا .

عندئذ قال لها الرئيس : لا بد يا جوزفين من توكيل محام عنك ، فاما أن تختاري أنت وكيلك ، واما أن اصدر أمري بتعيين وكيل عنك ، وليس الى غير هذا من سبيل .

قالت جوزفين : ولا بد من ذلك ؟.

الرئيس : لا .. ابدا .

جوزفين : اذن فليبق السيد بيير ميلر محاميا عني ، وأرجو ان يكون منسجما مع فكري وشعوري ، فلا يلجأ الى محاولة تبرئتي من جريمة انا قد اعترفت بها .

قال الرئيس : سيكون محاميك جنديا مخلصا يخدم الحق والعدالة والواجب .

وهنا أعلن رئيس المحكمة ، اختتام الجلسة ورفعها الى يوم السبت المقبل .

الفصل الحادي عشر

الدّرب الشائك

١

تتابعت جلسات المحكمة في رؤية هذه الدعوى ، واستمع الرئيس شهادات بقية الشهود ، وجاء دور الدفاع فأعطى رئيس المحكمة حق الكلام للسيد بيير ميلر محامي المتهمة جوزفين دامار فوقف بهدوء واتزان وألقى الكلمة التالية :

سيدي الرئيس ، حضرات المستشارين :

أعتقد ان مهمتي في الدفاع عن موكلتي جوزفين دامار باتت عسيرة جدا ، بعد ان وقفت الموكلة موقفها المحزن في احدى الجلسات السابقة ، بل حين خلقت أمامنا وأمام المحكمة الكريمة ، عقبةجديدة لا أشك أبدا فيأن اضطراباتها النفسيةوأعصابهاالمرهقة، هي التي أملت عليها وضع هذه العقبة في طريقنا ، الا وهي عقبة اعترافها المزعوم بأنها هي التي ارتكبت الجريمة ، وهي التي قتلت الطفلة ! !

هنا ... ضربت المتهمة جوزفين بكلتا يديها على منضدتها وصاحت بأعلى صوتها قائلة للقاضي :

لا ... لا يا سيدي ، انا لا أشكو اضطرابا نفسيا ، ولا أحمل أعصابا مرهقة ، كذلك لا أسمح لوكيلي أن يطعن اعترافي ، فلقد

اعترفت واسترحت ، وحسب المحامي ان يؤيد هذا الاعتراف تأييدا كاملا ، ثم عليه ان يسكت وينسحب .

رئيس المحكمة : هذا ليس من حقك يا جوزفين ، وعليك ان تفسحي المجال كاملا امام المحامي ، لكي يتمكن من تأدية واجبه بصدق وعزيمة ... ذريه ليلقي دفاعه كاملا ، دون ان تقاطعيه ، واعلمي ان الكلمة الاخيرة ستكون لك انت بالذات ، وانني قبل اصدار حكمي ، سأعطيك حق الكلام ، وحينئذ ستقولين ما تشائين وانت متمتعة بحريتك التامة في كل قول يصدر عنك .

جوزفين : لكنني يا سيدي لا أريد ان يسعى الى تبرئتي ...

الرئيس : البراءة او الحكم ليس بيدك ولا بيده ، هو بيد المحكمة ، فلا تتدخلي بأمور ليس من حقك ان تتدخلي بها .

جوزفين : وهل أسكت سكوتا تاما ؟

الرئيس : نعم ... ولا تقاطعيه أبدا ...

جوزفين : حسنا يا سيدي ... وعلى أنني سأقول انا الكلمة الاخيرة .

الرئيس : نعم ... وليتابع السيد ميلر دفاعه ...

المحامي بيير ميلر يتابع الكلام ويقول :

أرأيتم يا سيدي ، كيف أستطيع ان أدافع عن متهمة أنا مؤمن بقرارة وجداني وضميري ، انها بريئة كل البراءة ، ولكنها هي تقطع علي الطريق ... وتعترف بارتكاب جريمة لم ترتكبها ...

اجل ، يا حضرات المستشارين ، ان مهمتي عسيرة جدا ، ولكن الشيء الذي يعزيني ، بل يجعلني مطمئنا الى حسن النتيجة هو ايماني برحابة صدور أعضاء المحكمة الكريمة اولا ، وثقتي بأنهم حريصون على الوصول الى الحقيقة ثانيا ، سواء رضيت المتهمة أم لم ترض ، وسواء كان اعترافها صادقا أم كاذبا ...

يا حضرات المستشارين

انني لن أبحث الآن ، في أصول الدعوى وجذورها ، ولن أتعرض الى وقائعها المادية والحسية ، ولكنني أريد ان أفترض بادىء ذي بدء أن اعتراف المتهمة جوزفين صحيح ، وانها هي التي ارتكبت الجريمة كما زعمت ، لكي أتساءل من بعد ذلك وأقول :

لماذا ارتكبت جوزفين دامار هذه الجريمة ، ولماذا قتلت الطفلة كلير فيشار ؟ وبفرض أنها هي التي قتلتها ، هل تعتبر — وحدها — مسؤولة عن الجريمة ؟ ! أليس لها شركاء ؟ ! أليس هنالك دوافع ؟ ! اليس هنالك مبررات ؟ !

بلى يا سادة ، هنالك مسؤولون وهنالك شركاء ، لم يتناولهم التحقيق أبدا ، ولم تتعرض لهم المحكمة ابدا ، وهنالك أيضا دوافع وأسباب ، يجب ان نتناولها بالشرح والتفصيل ...

اذا أحببنا ان نعود الى ضمائرنا قليلا ، سنرى بدون شك ان المتهم الاول في هذه الجريمة هو ...

واسمحوا لي يا سادة ان أكون صريحا صادقا فأقول : ان المتهم الاول في هذه الجريمة هو « المجتمع » مجتمعنا كله ...

اجل المجتمع كله ، هو المتهم الاول في هذه الجريمة ، ذلك لأن المجتمع الذي لا يرى الرذيلة « رذيلة » الا من جانب واحد ، ويراها هي نفسها « فضيلة » من جوانبها الاخرى ، يكون — أي المجتمع — مجتمعا فاسدا يبني بيديه قواعد الرذيلة ، ويهدم بيديه صرح الفضيلة، ويشجع بقوة وعزم على انتشار الجرائم واضاعة الحقوق.

المجتمع الذي يغض الطرف عن انسان كالسيد فرانسوا مارتين — وأستميحه العذر أن اسميه باسمه — يغض الطرف عنه فلا يحاسبه ، ولا يعاتبه ، ولا يؤاخذه ، وهو الذي جعل من مهنته وهي « الخياطة النسائية » ومن محل عمله وهو « محل الخياط الشهير فيكتور لوبلان » شركا ، يصطاد به السيدات ، فيغرر بهن ،

ويخدعهن ، ويجرهن واحدة بعد الاخرى ، الى مهاوي الرذيلة والفساد ، دون ان يردعه ضمير ، او يحاسبه وجدان ... ان مجتمعا هذا شأنه مع انسان هذا سبيله ، لهو مجتمع ظالم آثم ، لن يكتب لبنيه حق العيش الشريف ، ولن تقوم على ارضه منائر العدالة والحق .

لقد جئنا الى قاعة هذه المحكمة ، لنقول لهذه المتهمة المسكينة جوزفين دامار : لماذا قتلت الطفلة كلير فيشار ؟!

أفلا نسأل ايضا فرانسوا مارتين ، لماذا تنكّر لعهد الزوجية المقدس ، ولماذا خان الرباط الالهي الذي كان معقودا بينه وبين زوجته ، ولماذا كان سببا في حمل المتهمة المسكينة على سلوك السبل الوعرة ، التي دفعتها اليها غيرتها على زوجها ، وحرصها على التعلق به ؟!

اولا نسأل أنفسنا ايضا عن الوزن الحقيقي لكل من الجريمتين الماثلتين أمامنا في هذه المحكمة الكريمة . بل يجب ان نفعل ايها السادة ...

فلو وضعنا في احدى كفتي الميزان جريمة قتل الطفلة كلير فيشار ، ووضعنا في الكفة الاخرى جريمة انسان قد استهان بحقوق الزوجية ،واستهتر بمكارم الاخلاق ،وجعل من نفسه وسيلة لا همّ لها الا هدم الفضيلة ونشر الرذيلة ... لا هم لها الا تقويض أركان المجتمع ، وتخريب دعائم الاسرة ، لا هم لها الا ان تساهم — كالسوس — في تخريب بيوت القيم الاخلاقية، ونسف أسس الحياة الاجتماعية ...

٢

وتابع المحامي بيير ميلر انطلاقه في هذا الجو المؤثر وراح يقول : أستحلفكم بالله — يا سادة — لو وضعنا جريمة قتل الطفلة

في احدى الكفتين ، ووضعنا في الكفة الاخرى ، جريمة قتل المجتمع كله ، فأي الجريمتين تكون أقسى وآلم ، وأي الجريمتين تكون أفعل وأخطر ؟ .

لا أنتظر منكم — يا سادة — جوابا تنطلق به السنتكم ، بل حسبي هذا الشعور الحي الذي تخفق به جوانحكم ، والذي يقول معي وهو في أعماقه ، ان المجرم الخطير ليس ذاك الذي قتل الطفلة ، وليس هذا الذي نسف أسس الفضيلة ، بل هو المجتمع ... المجتمع الظالم الذي حمل الاول الى قفص الاتهام ، وترك الثاني حرا طليقا يسرح ويمرح كيف يشاء ! ...

قولوا — بربكم — يا حضرات القضاة هل كان لهذه السيدة المسكينة ، القابعة امامكم في هذا القفص ، هل كان لها ان تغادر منزلها في الليل والنهار ، او ان تفكر بحبك بعض الخيوط لارتكاب احدى الجرائم ، لو لم ينتهك زوجها حرمة الرباط المعقود بينهما ، او لم يتركها فريسة الغيرة المميتة والهمّ الدفين ...

ثم ... تعالوا الى زاوية اخرى ، نشهد فيها فصلا جديدا من فصول هذه المأساة .

تعالوا ننظر الى القضية من زاويتها المقابلة .

فلو عكسنا هذه القضية ، ولو افترضنا ان الزوجة هي التي خانت رباط الزوجية ، وان الزوج هو الذي سعى لحبك خيوط الجريمة ، فهل تكون نظرتنا لهذا العكس نفس النظرة التي ننظر بها الآن ؟ .

حتما ... لا .

اننا سنلاحق الزوجة المسكينة ، وسنطاردها ، وسنطلقها ، وقد نسجنها ، وقد نعتبرها ضالعة في الجريمة ، او مسببة لها ، وسنسقطها حتما من حقها الاجتماعي ، وسنعتبرها امراة ساقطة ،

تترفع عن النظر اليها حرائر النساء ، ويحتقرها ويزدريها كل الرجال ...

فلماذا ــ يا أيها المنصفون ــ لا نضع ميزانا واحدا نزن به اعمال الرجال ، ونزن به أعمال النساء سواء بسواء .

لماذا نرى « زلة » المرأة انهيارا يستوجب كل زجر وعقوبة ، ونرى « زلة » الرجل امرا عاديا لا يستوجب أي مؤاخذة ...

السبب بسيط ملحوظ على ما أعتقد ، ويتلخص في ان « الرجال » هم الذين تولوا وضع المقاييس الاجتماعية والخلقية ، فجعلوها هينة لينة بالنسبة لهم ، وجعلوها قاسية مريرة بالنسبة للنساء ، وهم لو أنصفوا لجعلوا الكتب السماوية المقدسة ، هي صاحبة القول الفصل في هذا الموضوع ، وانتم تعلمون ــ يا سادة ــ ان كتب السماء ، لم تفرق بين الرجل والمرأة في حالات التنكر للفضائل ومكارم الاخلاق ، فالعقوبة الزاجرة المفروضة على المرأة في حال شذوذها ، هي نفس العقوبة الزاجرة المفروضة على الرجل في حالة شذوذه ، فلماذا لا تكون للمجتمع مقاييسه المستمدة من وحي السماء ، ولماذا نفسح المجال امام هذا الظلم الاجتماعي الذي سيستمر في دك معالمنا ، حتى لا تبقى لنا مثل رفيعة ولا قواعد أخلاقية .

يا حضرات القضاة

حاسبوا هذا الرجل ، وكل رجل مثله على فعلته ، ثم حاسبوا هذه المرأة وكل امرأة مثلها على فعلتها ، وحينئذ تكونوا قد رفعتم لمفهوم العدالة القضائية والاجتماعية دعائمه الثابتة المتينة ، التي تصون مجتمعنا من الانهيار ، وترسم امامه طريق الحياة الكريمة بعدل وامانة وشرف ، وحسبنا ان تكون رسالة السماء التي جاءت الينا في كتبها المقدسة ، منقذا واماما ودليلا ...

أعود بعد هذا الى زاوية اخرى من زاوية هذه القضية فأتناول

بالبحث ، موضوع السيدة مادلين رينو بالذات .

ان هذه السيدة كما تعلمون ، فقدت زوجها وهي في ريعان فتوتها وشبابها ، وقد أحبت ان تكون وفية لزوجها كأكثر ما يكون الوفاء ، وأحبت ان تكون مخلصة لطفلتها كأكثر ما يكون الاخلاص ، ولكنها ما درت ان كل شيء يزيد عن حده ، ينقلب بسرعة الى ضده ، انها تعدت حدود الوفاء ، وتعدت حدود الاخلاص ، فاذا بها تصبح وتمسي ... لترى نفسها فريسة مسكينة من فرائس العقوق والجحود والنكران ...

نعم ... لقد كانت عاقة لزوجها ونفسها ، حين فرضت على نفسها حياة سوداء مظلمة ، غيابة السجن ارق منها والطف .

لقد كانت عاقة لزوجها ونفسها ، حين واجهت عبوس القدر بعبوس أشد ، وحين لم تكن مرنة امام المصيبة التي حلت بها فأفقدتها زوجها ، وهي لو أنصفت نفسها وزوجها ، لتلقت المصيبة النازلة بالتجلد والصبر ، ولسارت مع الحياة سيرها الطبيعي ، ولما تجردت من متطلبات حياتها كانسانة لها حق الحياة التي يحياها كل انسان .

ان هذا التزمت الذي خرج عن حدود التزمت ، قد ركّب في نفسها مركبا للنقص ، ما لبث ان انفجر وانهار ، عند اول صدمة عاطفية قاسية ، ثم ما لبث ان نقلها من اقصى اليمين الى أقصى اليسار ، وبين عشية وضحاها رأينا الفتاة التي أبت أن تتزوج من الطبيب فيليب شار زواجا شرعيا تبني به أسرة جديدة قويمة ، رأيناها نتيجة لذلك التزمت وهذا التصلب تنقلب الى عشيقة تستهين بفضائل الزوجية ، وتحتقر الروابط المقدسة ، وتنغمس في حمأة مؤلمة ينظر اليها المجتمع نظرة اشمئزاز من ناحية ، ولكن دون ان تنالها يد القانون ، او تمتد اليها سلطة القضاء .

وما نقوله عن عقوقها لزوجها ونفسها ، نقوله عن جحودها لحق طفلتها كلير ، فهي قد كرست نفسها وحياتها ومستقبلها لخدمة طفلتها ، متجاهلة حقوق نفسها في التمتع بمباهج هذه الحياة

وزينتها ، فاذا بها تشعر في اللحظة الحاسمة ان طفلتها تقف حجر عثرة في سبيلها ، في طريق سعادتها ، وبين عشية وضحاها ، تنتقل ايضا من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، ومن يدرينا ، لعلها نتيجة لذاك التزمت وهذا التصلب قد انقلبت في احدى ليالي الاضطراب النفسي من جبهة الى جبهة ... من يدري ؟ ! لعلها قتلت ابنتها بيديها او لعل غيرها قتلها ، او لعلها ساهمت هي بهذا القتل ... !

٣

هنا ... سيطر على القاعة جو من الدهشة والوجوم ، حينما تفوه المحامي بيير ميلر بهذا المقطع من دفاعه ، وبدت على وجوه النظارة ملامح متضاربة ، فبعضها استنكر هذا التعريض بالسيدة مادلين واتهامها مجددا باغتيال طفلتها ، وبعضها آثر السير مع المحامي ميلر ، لتتبع جولاته بغية الوصول الى الحقيقة ، بينما انفجرت عيون السيدة مادلين بالبكاء الصامت الذي يغطيه حزن مرير ...

تابع المحامي ميلر دفاعه فقال : لا تعجبوا ـ يا سادة ـ حتى عند هذه النقطة نعود فنرى ان المجتمع ما زال هو المسؤول عن هذا التدهور الاجتماعي في حياتنا العامة .

وأقول : المجتمع هو المسؤول ، حينما أذكر حادث فتاة توفي عنها زوجها ، وهي في ريعان صباها وفتوتها ، ففرضت على نفسها حياة الترهب والتقشف ، ثم لا يؤاخذها هذا المجتمع بشيء ، وهو لو قال لها ، ان سلوكها هذا ، يشين الفضيلة ، ويستدرج الى الرذيلة ،او لو نظر الى امراتان من هذا النوع نظرة الشذر ،لبادرت كل سيدة تصاب بما أصيبت به هذه السيدة ، الى تقبل مصائب الحياة بصبر وتجلد ، والى النظر الى الحياة بمنظار الواقع والحاجة

والجنس ، وحينئذ تفر من حياة الحزن والترهب والتقشف ، لتدخل الى الحياة من باب الواقع والرضى والابتسام ، وحينئذ نكون قد هدمنا دربا من دروب الجريمة ، او حطمنا وسيلة من وسائلها ...

يا حضرات المستشارين

أعتقد ان هذا الايضاح ، حول علاقة المجتمع بمثل هذه الجرائم التي نراها تتكرر وتتجدد كل يوم ، علاقة حميمية ، يجب ان نأخذها بعين الاعتبار ، كلما عرضت لنا قصة من هذه القضايا ، أو كلما حاولنا ان نقيم دعائم مجتمعنا على أسس أخلاقية رشيدة ...

وهنا أحب أن أعرج على وقائع الجريمة المنسوبة للسيدة جوزفين دامار ، فأتساءل بصدق عن الدليل القطعي الذي يصح ان تعتمد عليه لتجريم هذه الفتاة المسكينة .

أين هو الدليل ؟ !

أهو شراؤها بطاقات السفر ، او دخولها الى بيت مادلين ، وحصولها على كتاب معهد القلبين الاقدسين ، او اتصالها بالطبيب فيليب شار ... قولوا ـ يا سادة ـ ماذا غير هذا ؟ ! ...

انها كلها ليست أدلة ... ولئن اعتبرت قرائن فانها تؤخذ بعين الاعتبار فقط ، الا ان الدليل القطعي الذي يستوجب اصدار الحكم العادل ، ما قام بهذه القرائن ، وثقوا بأنه لن يقوم ابدا ، لأن المجرم الحقيقي ما زال خارج قفص الاتهام ، واذا أردتم ان تفتشوا عنه ، ففتشوا عنه بعيدا عن جوزفين دامار ، جوزفين التي ظلمها مجتمعها ، وظلمها قومها ، وظلمتها نفسها ، وظلمها سوء طالعها ، وسوء تدبيرها ، واني أربأ بمحكمتم الكريمة ان تكون في عداد ظالميها ، واني اذ أذكركم بالقرائن التي قامت على «القصاب» حينما كانت سكينه تقطر دما امام الضحية ، واذ أذكركم بالقاضي

الذي عذله ضميره حين حكم بريئا بالسجن عشرين سنة ، واذ اذكركم بظلم المجتمع للنساء ظلما قاسيا ، والتماسه العفو عن الرجال التماسا طاغيا ...

انني اذ اذكركم بهذا كله ، أطلب البراءة لموكلتي ، جوزفين دامار ، أو عدم مسؤوليتها ، وما أظنكم الا فاعلين !!

***

بهذا انهى بيير ميلر دفاعه البليغ عن جوزفين دامار ، ولوحظ انه كان مسيطرا على جو الجلسة سيطرة تامة ، وهو وان لم يستطع ان يصل بحق موكلته بالبراءة الى مرتبة الاقناع العميق ، فان مما لا شك فيه انه قد وصل بالتهمة الموجهة اليها الى مرتبة الشك الكبير .

وما ان عاد بيير ميلر الى مكانه ، بعد ان انهى دفاعه ، حتى وقفت جوزفين دامار في قفصها ، وطلبت الاذن بالكلام ثم قالت :

ليسمح لي السيد ميلر ان أتقدم بشكري الجزيل على دفاعه البليغ ، وكم كنت أتمنى ان أكون بريئة حقا ، لكي أنعم بلذة الاستماع لمثل هذا الدفاع الجميل ، وكم كنت أتمنى أيضا ، لو ان السيد ميلر ، قد أخذ بوجهة نظري ، ووفر على نفسه وعلى المحكمة الكريمة هذا الوقت الذي أضاعه في غير طائل ... كم كنت أتمنى ان يكون قد أتى بالادلة والبراهين التي تؤيد اعترافي بارتكاب جريمة في ارتكابي لها ، وعلى هذا ، أعود فأقول امام المحكمة الكريمة وانا متمتعة بكامل قواي العقلية ، انني قتلت الطفلة كلير فيشار ، وانا خنقتها بيدي هاتين ، وانا ألقيت بجثتها في حوض الحمام ، ومن الخير لي ولكم وللمجتمع الذي تحدث عنه كثيرا السيد ميلر ، من الخير لنا جميعا ، ان ألقى جزاء ما صنعته يداي ، وثقوا انني سأتقبل الحكم بنفس واثقة راضية مطمئنة .

قالت هذه وعادت الى الجلوس ، بعد أن سجل كتّاب المحكمة جميع اقوالها .

ثم جاء دور جهة الادعاء ، فلم تزد شيئا على ما قالته في الجلسات السابقة ، الا ان السيدة مادلين رينو ، طلبت اعطاءها حق الكلام ، فوقفت كسيرة القلب دامعة العين لتقول :

٤

يا سيدي الرئيس :

انني سمعت دفاع السيد ميلر ووعيته ، ولمست في حنايا كلماته حقائق لا يقوى على انكارها كل ذي شعور وضمير ، وانني أعتبر نفسي مسؤولة عن جميع فصول هذه المأساة ، منذ لحظاتها الاولى ، ولكن ماذا أصنع بالثوب الذي حاكته لي أيدي الاقدار ، دون ان يكون لي رأي في خيوطه وأنسجته ؟ ! ...

لقد لبسته طائعة ومكرهة ، وسرت فيه على الدرب الشائك ، حتى فوجئت بفقدان ابنتي كلير التي كانت عدتي لحياتي ، وأملي في مستقبلي ...

فوجئت بفقدانها على الطريقة التي أصبحت محفوظة ومعروفة ، ولكن هل عرفنا القاتل الحقيقي ...؟!

اسمح لي يا سيدي ، فأنا حتى هذه الساعة ، لا أزال أعتقد بأن حادث وفاتها كان قضاء وقدرا ، وانه ليس هنالك جريمة أو ما يشبه الجريمة ، وكل الذي سمعته من أدلة ضد السيدة جوزفين دامار ، لم أر فيه ما يؤيد وجود الجريمة ، ولهذا فانني أعلن سحب ادعائي ضدها ، كما أسقطت حقي من طلب اعتباري مدعيا شخصيا ، واني في كلا الحالين شاكرة للمحكمة الكريمة حرصها على ان يأخذ العدل مجراه ، وينال كل ذي حق حقه .

هنا تكلم النائب العام ، وتحدث مطولا حول دفاع السيد بيير ميلر ، وقال : نحن امام قضية وجريمة ، ومن واجبنا ان

ندرس موضوعها على ضوء القوانين القائمة ، وليس من اختصاصنا في شيء ان نتولى اصلاح المجتمع بما يخالف القوانين السارية ، لأن هذا من اختصاص السلطات التشريعية والتنفيذية في البلاد ، لا من اختصاص السلطات القضائية ، فمتى قام الدليل ، توثقت الحجة وصدر الحكم ، اما اصلاح المجتمع وفق الاسس التي اشار اليها السيد ميلر ، فانني اؤيده كل التأييد واتمنى على السلطات التشريعية ان تعمد الى الاخذ به بقوة وشدة ، واعتقد اننا في هذه الدعوى بالذات لا نستطيع ان نفيد كثيرا من دفاع السيد ميلر ، فنحن نقدم الدليل ، ونطالب بتطبيق النصوص القانونية .

وتابع النائب العام فقال :

واما ما قالته السيدة مادلين رينو من انها اسقطت حقها في الادعاء ، فهذا يشملها من ناحية حقها الشخصي فقط ، اما الحق العام ، فهو حق الدولة والامة والوطن وهذا ما أمثله انا في هذا المقام ، ومعلوم ان دم الطفلة كلير فيشار ليس ملكا لوالدتها وحدها، بل هو ايضا ملك الدولة والامة والوطن ، وعلى هذا فنحن ما زلنا امام جريمة لا شك في وقوعها ، وما زلنا امام متهم قامت عليه الادلة وجلس في قفص الاتهام ، وقدم لنا ابلغ دليل تقوم فيه الحجة ويتضح فيه البرهان ، حين اعترف اعترافا صريحا ليس فيه غموض او ابهام ، بأنه هو ، اي السيدة جوزفين قد ارتكبت الجريمة ، وخنقت الطفلة بكلتا يديها .

هنا هزت جوزفين رأسها مؤيدة ما قاله النائب العام وبدت على وجهها ابتسامة الرضى والقبول .

وتابع النائب العام كلامه فقال : والآن ارجو من المحكمة الكريمة ان تصدر الحكم الذي تراه كفيلا بتطهير المجتمع من آثار الجريمة والمجرمين ، علما بأن الانسان سواء كان ظالما او مظلوما ، لا يجوز له ان يجعل من نفسه حاكما او محكوما ، فيلجأ الى اخذ حقه ، او فرض باطله بالاعتماد على قوته وسلطانه . ذلك لان الذي

يعطي نفسه مثل هذا الحق ، ويتجاهل وجود الدولة وسلطان القضاء ، يكون مجرما صريحا ما في ذلك شك ، وان الانسان العادل هو الذي يعرف للحق حرمته ، وللباطل بطلانه ، فلا يلجأ الى احقاق الحق او ابطال الباطل الا عن طريق الدولة وسلطان القضاء.

بهذا أنهى النائب العام مرافعته ، وبعدها توجه رئيس المحكمة بسؤاله عما اذا كان هنالك احد يطلب حق الكلام .

فتقدمت جوزفين دامار وقالت انني اؤيد يا سيدي ما قاله النائب العام ، واجدد اعترافي امامكم واعلن اني انا التي قتلت الطفلة كلير فيشار ، وانني لا أنتظر بعد الآن ، الا سماع الحكم العادل الذي سيكون جزاء وفاقا لما اقترفته يداي ، ولا يفوتني ان اتبرأ من كل كلمة وردت في دفاع السيد بيير ميلر ، فيما اذا كانت تلك الكلمة ترمي الى محاولة تبرئتي من الجريمة التي ارتكبتها يداي ، مع تسجيل شكري له على دفاعه الاجتماعي القيم .

وسألها الرئيس عما اذا كانت هذه هي اقوالها الاخيرة ، فأجابت بالايجاب ، ثم سأل جهات الاثبات والدفاع عما اذا كان لدى احد ما يقوله ، فلم يتقدم احد بشيء .

عندئذ أعلن رئيس المحكمة رفع الجلسة الى يوم الثلاثاء المقبل لاعطاء القرار .

الفصل الثاني عشر

يقظة الضمير

١

كان جو المحكمة في هذه الجلسة جوا رهيبا ، فقد غصت القاعة بجماهير غفيرة من عموم الطبقات ، وحضرها عدد كبير من الاساتذة المحامين والصحفيين ، لسماع القرار في هذه الدعوى الاجتماعية المؤثرة ، وشهدها بنوع خاص عدد كبير من الاوانس والسيدات اللواتي بدا عليهن الاهتمام الزائد بسير الدعوى لمعرفة نتائجها .

وعندما صاح حاجب القاعة بصوته المألوف : « محكمة » ، هب الجميع وقوفا وقفة الاحترام للهيئة القضائية ، حيث صعد الرئيس على القوس وتبعه الاعضاء والكتاب ، وبعد ان جلسوا في اماكنهم عاد الناس الى الجلوس ، وحينما لاح في جو القاعة جلال الصمت ورهبة القضاء ، أعلن الرئيس افتتاح الجلسة ، وبعد ان نودي على المتهمة جوزفين دامار وسجل الكاتب وجودها ، ووجود جهات الاثبات والدفاع والمحامين ، قال رئيس المحكمة : ان المحكمة بعد ان استجمعت وقائع هذه الجريمة وحصرت ادلتها واستمعت الى اقوال جهات الادعاء والدفاع واستوعبت اقوال شهود الفريقين وشهود الحق العام ومطالعات النيابة العامة قررت ما يلي :

وهنا بدأ الرئيس بتلاوة قراره الطويل الذي ذكر فيه وقائع

الجريمة من لحظة وقوعها حتى ساعة الوصول الى اعطاء هذا القرار ، كما اتى فيه على ذكر الظروف التي سببت وقوع الجريمة بالنسبة لجميع الاطراف المعنيين ، ممن كان لهم فيها علاقة مباشرة او غير مباشرة ، ثم عدد حيثيات الحكم الى أن قال :

من هذا يتضح ان المتهمة جوزفين بنت جرجي دامار قد اقدمت على ارتكاب جريمتها عن سابق تصور وتصميم ، فرتبت لها خطوطها وعينت ساعة تنفيذها ، وفي الساعة المقررة نفذت جريمتها التي اعترفت بوقائعها اعترافها كليا ، فخنقت بيديها الطفلة كلير فيشار ، ثم ألقت بجثتها في مياه حوض الحمام لتستر بذلك جريمتها ، وانسحبت من البيت لا تلوي على شيء ..

لهذا ... ولما كانت هذه الجريمة تنطبق عليها المواد ٣١٢ و٤١٣ و٤١٥ من قانون العقوبات ، ولما كان النص صريحا في ان ارتكاب جريمة القتل عن سابق تصور وتصميم ليس له من عقوبة الا عقوبة الاعدام .

لهذا ... قررت المحكمة بالاجماع تطبيق ...

وهنا ارتفع صوت مذعور ، ارتجت له انحاء القاعة المكتظة ، وتصدعت به أركان الصمت الرهيب ، الذي كان مسيطرا على جو الجلسة ، ووقفت مادلين رينو مع ذلك الصوت المرعب وقفزت من مكانها الى امام القوس ، وهي بحالة اضطراب عصبي وهيجان نفسي ، وتابعت صراخها وهي تقول :

لا .. لا .. قف .. قف يا سيدي القاضي .. لا . لا .. ليست هي .. ليست هي القاتلة ، بل هي انا ... انا يا سيدي، انا القاتلة ... انا التي قتلت طفلتي بيدي ، فكيف تجرؤون على الصاق الجريمة ببريئة ؟.. لا.. لا.. دعوها وخذوني، واصنعوا بي ما انتم صانعون ..

شده اعضاء المحكمة لهذه المفاجأة غير المنتظرة ، وشده

الناس جميعا ، وسادت القاعة ساعة دهشة وصمت ، تبعها شيء من الهرج والمرج ، وبدا على اعضاء المحكمة شيء من الارتباك ، الا ان الرئيس استطاع بشخصيته القوية ، وحسن سيطرته على أعصابه ، ان يعيد للقاعة صمتها وهيبتها ، وفي موقف جريء حازم حاسم قال رئيس المحكمة :

ما هذا الذي تقولينه يا مادلين ؟

ضحكت مادلين رينو ضحكة ألم وتهكم وقالت :

هو ... ما سمعتموه يا سيدي ...

الرئيس : أعيديه علينا ..

مادلين : انني انا القاتلة ، قاتلة طفلتي كلير ، وليست هي هذه المرأة المسكينة القابعة في قفص الاتهام المدعوة جوزفين دامار، نعم، هي انا مادلين رينو زوجة الفريد فيشار ...

الرئيس : وهل تعنين ما تقولين يا مادلين ؟

مادلين : نعم ... أعنيه تماما ، ولكنكم انتم لا تعنون ما تقولون !

الرئيس : احترمي المحكمة يا مادلين !

مادلين : ولماذا !؟ أأحترم محكمة اراها رأي العين ، تتهيأ لاصدار حكم بالموت على بريئة ، نعم .. على بريئة ؟!

انا أعني ما اقول يا سيدي ، ولكنكم انتم لا تعنون ما تقولون حينما تصدرون احكاما ظالمة تدينون بها الابرياء ، وتبرئون بها المجرمين ...

ترى كم من بريء تدلت جثته فوق اعواد المشنقة بموجب أحكام قضائية معللة مدللة... وكم من مظلوم قامت ضده قرائن وبراهين اودت به الى المصير المحتوم ، دون ان يعلم احد انه بريء او مظلوم ... وكم هنالك من وقائع وحوادث تتشابه مع قصة

القصاب المسكين ، او السجين البريء ، لم يسعف اصحابها الحظ بالكشف عن هوية المجرمين الاصليين ، فراحوا ... هم ضحية الظلم ، او التضليل ، او الاهمال او سوء الطالع ، او راحوا ضحية أحكام قضائية معللة مدللة استندت الى نصوص ولم تستند الى ضمائر ، وسارت مع تيارات ولم تسر مع حقائق ...

ليتكم ــ يا سيدي ــ وعيتم هذا الذي قاله احد الشهود ، حين جابه الضمير الانسان العادل وقال :

« ان فرار الف مجرم من وجه العدالة ، في الف قضية اجرامية ، أفضل بألف مرة من سفك قطرة دم واحدة ، من عنق انسان بريء ، مهما دارت حوله الادلة ، او انصبت عليه وثائق الاتهام ... »

اجل ... يا سيدي ، ليتكم وعيتم هذا ... وما أظنكم تحرصون على مثل هذا الوعي لانكم ...

الرئيس : قلت لك احترمي المحكمة يا مادلين !

مادلين : نعم سأحترمها ... اؤكد لك يا سيدي انني سأحترمها ، وسيحترمها معي كل الناس ، حينما يعتقدون ان ما يصدر عنها هو الحق ، وانه لا يصدر عنها الا الحق ، اما حينما يظل في الامر شيء من الشك ، فان الشك نفسه سينتقل الى حقيقة الاحترام في مبناه وفي معناه .

لهذا ، ارجو يا سيدي ان تضموا اسمي الى قائمة الاشخاص الذين كانت تستيقظ ضمائرهم في اللحظة الحاسمة ، فيواجهون الحقائق بعزم وقوة ، ولو كلفتهم هذه المواجهة حياتهم ، لان من الخير للمرء ان يحيا مع ضميره في عالم الخالدين ، وليس من الخير له ان يحيا بجسده في عالم المخادعين ...

انني انا يا سيدي قتلت طفلتي ، وليست القاتلة جوزفين دامار ، فاصدروا حكمكم ببراءتها ، واصدروا حكمكم بادانتي ،

واني لأؤكد لكم أن الراحة التي أشعر فيها الآن بأعماق ضميري ، تهوّن علي قساوة الحكم الذي تصدرونه ، ذلك لأنني حلت بارادتي ، دون سفك دم انسانة بريئة لم ترتكب جرما .

٢

وتابعت مادلين رينو كلامها فقالت :

نعم يا سيدي انا قتلتها ، ولم اقتلها كرها بها ، فهي التي كانت اعز ما املك في هذا الوجود ، وهي التي ستبقى الى الابد ، ساكنة سويداء قلبي ، حتى التقي معها في عالم الخلود .

هيا ... ففكوا يا سيدي اسار هذه المرأة المسكينة واطلقوا سراحها ، واذكروا اسمي مكان اسمها في قراركم ...

اجل ... لا تصنعوا شيئا ، ولا تتعبوا انفسكم بشيء ... اسم مكان اسم فقط .. ارفعوا من قراركم الذي تعبتم في كتابته امدا طويلا اسم « جوزفين دامار » ، وضعوا مكانه اسم « مادلين رينو » ثم صدقوا الحكم وضعوه موضع التنفيذ ، وكل الذي ارجوه منكم ، ان تسرعوا في تنفيذ قراركم ، فقد سئمت طول التسويف وسوء المماطلة .

كانت معاني الحيرة والدهشة بادية على وجوه الجميع، وكان القضاة يتابعون اقوال مادلين بدقة وعمق ، وبدا عليهم أنهم تاهوا في بحران هذه القضية الغريبة ، وقبل ان يتمكنوا من الوصول الى تقرير رأي او شبه رأي فيما قالته مادلين ، انبرت لهم جوزفين دامار من قفصها ، وقطعت على الجميع فورة الدهشة والحيرة وقالت بصوت جهوري :

يا سيدي الرئيس ، لا تصدقوا ما قالته مادلين فأنا قتلت

الطفلة كلير وليست هي ... قتلتها بيدي هاتين ، فأتمـوا قراءة قراركم ، واسمعوني نتيجة الحكم فاني اتلهف الى سماعها ، وثقوا انني سأجد بحكمكم لذة يتبرد بها قلبي وترتاح اليها نفسي ..

اتجهت مادلين الى جوزفين .. وقالت لهـا : لا .. لا يـا صديقتي ، لا يفيدك هذا ، اذهبي الى زوجك واستمتعي معه بنعيم العيش ، وذريني اذهب الى مصيري المحتوم الذي كتبـه عليّ قلـم الاقدار .

قالت جوزفين : ولماذا لا تذهبين انت يا سيدتي الى عشيقك الاثيل ، ولماذا تحولين دون نزول العقاب على مجرمة قد ارتكبت بيديها جريمة القتل ، وكان جزاءا وفاقا ان تنال عقاب الجريمة .

مادلين : ولكنك لست انت القاتلة ، بل انا .

جوزفين : لا لا يا سيدتي .. انا هي القاتلة .

مادلين : بل انا وانا وحدي ، وثقي ان احـدا لا يعرف كيف انتهت حياة كلير ، وكل ما اورده التحقيق ، وما شرحته التقارير ، لا ينطبق في شيء على الواقع والحقيقة ...

وتابعت مادلين تقول :

لقد شرّحوا جثة كلير ، وكتبوا بعد تقرير الطبيب الشرعي الذي صدر عن مشفى الجامعة وقالوا فيه ان الوفاة لم تنجم عن مجرد اختناق الطفلة بالمياه ، بل رافقه ضغط على الحلقوم بأصابع قوية بغية الاسراع في تنفيذ الجريمة ...

هنا ضحكت مادلين مستهزئة وقالت : ضغط على الحلقوم باصابع قوية ..؟ مساكين هؤلاء الناس ، مساكين في تحقيقاتهم ، مساكين في معلوماتهم ، مساكين في مجتمعهم ، مساكين في قضائهم ومحاكمهم ، واخيرا ، مساكين في طبهم الشرعي وفي تقاريره التـي تعتمد عليها المحاكم ..

اجل ... حتى هذه التقارير .. ما ابعدها عن الواقع ... قولوا لهم عن لساني ، انهم اذا اصابوا في وضع تقرير فقد اخطأوا في وضع تقرير آخر ، ولئن صدقوا في محاولة الكشف عن جريمة ، فقد نجحوا في طمس جريمة اخرى ، فكأني بهم لا يسيرون دائمـا مع وجداناتهم ، بل كثيرا ما يسيرون مع عوامل اخـرى تنتابهم او تؤثر عليهم ، او لعلهم لم يتمكنوا بعد من العثور على الوسائل التي تجعل من تقاريرهم التي يبرأ بها ناس ويُدان بها آخرون ، وثائق صدق وحق وواقع .

فمسكين ، وألف مسكين من يذهب ضحية تقرير يتلاعب به الوجدان ، او تقصر عنه وسائل العلم اللازمة ، أو تعبث به عوامل الخطأ او الجهل او الاهمال .

اتجهت مادلين مرة اخرى الى القاضي وقالت لـه أن القتـل يا سيدي لم يحدث بواسطة اصابع قوية ،ولا اصابع ضعيفة ، وانما جرى بوسيلة اخرى ، فهل تريد ان اقص عليك قصتها ؟!

القاضي : قولي ما انت قائلة يا مادلين .

مادلين : انني حينما صممت على تخليص ابنتي الغالية من حياة كلها شقاء وتعب وارهاق ، املأت حوض الغسالة الكهربائية بالماء البارد ، ثم ادرت محركها الكهربائي والقيت الطفلة في حوض الغسالة فدارت مع المياه ، وكانت تخفق فيها ، كما تخفق ثيـاب الغسيل ، ثم عدت اليها بعد عشر دقائـق ، واوقفـت المحـرك الكهربائي ، واخرجت الطفلة جثة هامدة ، وهكـذا ترون انه ليس هنالك اصابع ، ولا « بانيو » ولا حمام ، فقولوا بربكم لأعلام الطب الشرعي في مشفى الجامعة ، من اين جاءوا بالاصابع القوية ، ثـم قولوا للمحققين ، من اين عرفوا ان هذه الاصابع ، هـي اصابـع جوزفين دامار ، واخيرا قولوا لانفسكم او اسألوها عن شعوركم ، حين علمتم انكم كنتم على وشك اصدار حكم على انسانة بريئة ، لو لم ينقذكم الله من هذا الاثم ، بيقظة ضميري واعترافي بالواقع .

اعود فأقول ، يا سيدي القاضي ، اسرعوا باصدار حكمكم ، وضعوا اسمي مكان اسم جوزفين ، وأريحوا انفسكم ، وأريحوا الناس ، وأريحوني .

عادت جوزفين دامار الى الوقوف ، وقالت : بل اريحوني انا ، انا يا سيدي هي القاتلة ... ولا تصدقوا مادلين رينو ، فانها لا تقول الحقيقة ..

لم يرتبك القاضي امام هذه الوقائع المذهلة ، وسرعان ما أصدر قرارا بتوقيف مادلين رينو ، الى جانب جوزفين دامار ، لمتابعة التحقيق معها ، كما أصدر قرارا آخر بتعيين لجنة قوامها اربعة اعضاء ، الاول طبيب نفساني ، والثاني عالم اجتماعي ، والثالث دكتور في الحقوق ، والرابع قاض يتولى رئاسة هذه اللجنة ، على أن تجتمع فورا ، وتدرس اوضاع المتهمتين جوزفين دامار ومادلين رينو ، وتقدم للمحكمة تقريرا دقيقا ، يلقي الانوار الكاشفة على وقائع هذه القضية ، ويبين من هو القاتل الفعلي الذي انهى حياة الطفلة كلير فيشار ، بعد أن وجدت المحكمة نفسها امام متهمتين كل يدعي انه هو القاتل .

ولئن كان معروفا من قبل ان المحاكم تعتمد في رؤية دعاواها على المماطلة والتسويف ، واطالة آماد الاخذ والرد ، اللذين تضيع معهما الحقوق ، فضلا عن ميل الناس الى العزوف عن القضاء ، بسبب بقاء المتخاصمين «كساكنين» في قصر العدل شهورا واعواما طوالا ، يسأمون معها حياتهم ، من كثرة نوم الدعاوى في بحار التطويل والتأجيل ، نقول : لئن كان هذا معروفا من قبل ، فان رئيس هذه المحكمة قد ضرب الرقم القياسي في حرصه على سرعة البحث والبت ، ولهذا فانه امهل اللجنة ، ثلاثة ايام فقط تقدم بنتيجتها تقريرها للمحكمة ، لترى فيه رأيها الاخير ...

وهكذا اعلن رئيس المحكمة رفع الجلسة الى الساعة التاسعة من صباح السبت المقبل ، لاعطاء القرار .

٣

التأم جمع المحكمة صباح السبت ، وبدات الجلسة بالمراسم المعتادة ، وتقدم احد اعضاء اللجنة الرباعية وقرأ التقرير الآتي :

سيدي القاضي ، حضرات المستشارين

واصلت اللجنة بحثها وتمحيصها لموضوع السيدتين مادلين رينو وجوزفين دامار ، واجتمعت بكل منهما ساعات طويلة ، كما اجتمعت بهما معا — مجتمعتين — وخلصت الى تقديم النتائج التالية :

ان السيدة جوزفين دامار قد اصيبت بصدمة قاسية في حياتها ، لانها منذ طفولتها كانت تبني آمال مستقبلها على بيت زوجي سعيد ، تنعم فيه بالدفء مع رجل يقاسمها نعيم الحياة ، وتعينه على نوائب الدهر ويعينها ، ولكنها لم تجد بغيتها في زوجها فرانسوا مارتين الذي كان زير نساء وربيب مجون وشاب طيش ، بالرغم من حبه لها وحبها له ، وحرصه عليها وحرصها عليه ، ولقد صبرت على مجونه وطيشه امدا طويلا ، على أمل الوصول الى حياة الهدوء والاستقرار في بيت الزوجية ، ولكنها لم تصل لان المرأة الاخيرة دخلت في حياته ، ونعني بها مادلين رينو قد افسدت حياتها ، وانتزعت منها زوجها ، ولم يكن في مقدورها ان تتخلص من حبها له ، لانها كانت تحبه حبا عميقا ، كما لم يكن في مقدورها ان تنتشله من الهاوية التي تردى فيها ، فكانت تتنازعها العوامل المختلفة ، وتهاجم فكرها تيارات مضطربة ، وكانت تلف وتدور فلا ترى غير بيت مادلين رينو سببا في تعاستها وشقائها ، فاعتقدت بعدما يئست من عودة زوجها اليها ، اعتقدت ان السبيل الوحيد الذي يضع حدا لشقائها ، كامن في هدم بيت مادلين رينو ، سواء

كان هذا السبيل وسيلة لبلوغها سعادتها ، او للقضاء عليها قضاءا اخيرا ، وسواء شمل هذا الهدم مادلين وفرانسوا وشملها معهما ام لم يشمل ، اذ تركزت العقدة في نفسها هنا وعند هذه النقطة بالذات ، اي من هنا انطلقت لتعمل على هدم هذا البيت مهما كانت النتائج ، وسارت في دربها الشائك الذي عرفتم تفصيلاته من سير الدعوى ، حتى انتهى بها المطاف الى قفص الاتهام ، الذي نراها قابعة فيه الآن ، تنتظر فيه اللحظة الحاسمة التي اعتقدت معها بأنها ــ ولو كانت لحظة موت محقق ــ ستضع حدا لحياتها التي امتلأت بالتعاسة والشقاء ، وستذهب الى مصيرها راضية بعدما رأت بعينيها ان صرح آمالها الذي بنته منذ طفولتها قد انهدم ، وبعدما لمست لمس اليد ان امانيها في بيت زوجي سعيد ، قد تحطمت بين يدي مجتمع فاسد ظالم .

اما السيدة مادلين رينو فقد تعرضت لصدمات اعنف واقسى ، ذلك لانها ذاقت مرارة اليتم حين توفي ابوها وهي بعد في سن التاسعة من عمرها ، فلم تتفيأ ظلال حبه ، ولم تنعم ببره وعطفه ، فتركت وفاته في كبدها جرحا لا يندمل ، وحزنا لا يبرح ، وما بلغت سن الثالثة عشرة حتى فاجأها القدر بالصدمة الثانية ، حين ماتت أمها فأورثتها الما لا يهدأ ودمعا لا يرقأ ، وبهذا كانت العقدة عقدتين ، والمصيبة مصيبتين .

وحينما انتقلت الى بيت عمتها التي كفلتها وحدبت عليها ، لم تنعم نفسها برضى الاعماق ، لانه ما كان لها ــ برغم جميع ظروف الحب والرعاية التي احاطتها بها عمتها ــ ما كان لها ان تنسى ، بأنها تعيش عالة على بيت ، لم يكن بيت ابيها ، ولا بيت أمها ، فكان هذا الشعور يركب في نفسها عقدة ثالثة ، لم يقو الحنان الذي كانت تبذله لها عمتها بحب وسخاء ، على انتزاع آثارها من نفسها الآلمة الكئيبة .

واخيرا ... وبعد أن ظنت بأن الاقدار قد ابتسمت لها ، لتمنحها حق العيش الكريم في بيت زوجي سعيد ، ترفرف عليه

اجنحة الحب ، وتملأ جوانبه افاويق السعادة ، فاجأها القدر مرة اخرى ، بعبوس اشد تجهما ، وبقسوة اشد مرارة ، فاذا به يفقدها في ليلة واحدة زوجها وحبيبها ورب سعادتها وهنائها ، اجل ... بليلة واحدة ، في حادث سقوط الطائرة ، وماتت معه عمتها التي كانت لها اما وابا واهلا وولدا ...

وهكذا رأينا مادلين رينو ، وهي فتاة في السادسة عشر من عمرها ، يهصرها الالم ، وتمضها الحرقة ، وتعاني في أعماق نفسها عقدة رابعة شديدة ، لانها لم تقض مع زوجها سوى احد عشر شهرا ، وهي فتاة في ميعة الصبا لم تترك زهرة من زهور الدلال الا اقتنصتها ، فكان على جسمها ثوب ، وعلى رأسها تاج الجمال .

اما العقدة الخامسة التي كانت اقسى العقد وآلمها على نفسها فهي ذلك الجنين الذي كان يضطرب في احشائها ، والذي كتبت عليه الاقدار ان يلج باب الحياة من باب اليتم المرير الذي عرفت امه مبلغ قساوته وشدته ..

ومع هذه العقد التي كانت تعمل عملها في نفس مادلين صباح مساء ، وضعت طفلتها كلير ، وكانت تعتقد انها وضعتها في اتون الحياة ، لتلقى عيشا احلى منه الموت ، ولتعاني منه مصاعب اطيب منها الفناء .

لهذا اعتقدت انها اذا كرست نفسها لخدمتها ، والانقطاع عن دنيا الناس ، وعن حاجات نفسها ، ستضمن لها امتع من الحياة التي عاشتها الام ، كما تضمن لها سعادة لم تستطع ان تنعم هي بظلالها ، ومعلوم ان كل انسان يتفانى ــ بطبعه ــ في رغبته وسعيه ، لكي يقدم لولده كل ما كان محروما هو منه في حياته ، وهكذا ظنت مادلين أنها ستعيش لغاية واحدة فقط ، هي توفير السعادة التي حرمت هي منها لطفلتها كلير ، ولم تعلم ان الطاقة النفسية محاطة بمقاييس ، وان التضحية بالنفس من اجل الولد لها حدود وميادين ، لهذا فتحت عينيها ذات يوم لترى نفسها فريسة واقع

بشري لا تستطيع تجاهله ، وطريدة حاجات نفسية وجسدية لا قبل لها باحتمال الصبر عنها ، وفجأة وجدت نفسها في أحضان حب عميق ، ملك عليها قلبها وعقلها ، وبين ليلة ونهار وجدت نفسها تحيا حياة لا ترضي مكارم الاخلاق ، ولا تحترمها حياة الشرف والفضيلة والدين .

سارت في هذه الطريق سيرا طويلا ، يبكيه الضمير ويعذبه الشعور ، ولكنها استطاعت مع ذلك ان تقنع نفسها بالرضى في هذا العيش ، معللة ذلك ، بأن القدر والقدر وحده ، هو الذي صنع لها هذه الحياة ، وهو الذي كتب عليها هذا المصير .

استطاعت مادلين ، ان تفعل ذلك ، ولكنها لم تستطع ان تحول دون اعتمال العقد النفسية التي كانت تعمل عملها في الاعماق، والتي كانت ترهق عقلها وقلبها ، وتشحنهما بالهواجس والاوهام ، هذه العقد قد تركزت كلها عند سؤال واحد ، لم تستطع ان تجد الجواب عليه ، وهذا هو : (كيف ستعيش طفلتها كلير ، وكيف يكون خط السير في حياتها المقبلة الغامضة ، وما هو مصيرها المجهول اذا تجهمت لها الاقدار ، وعبست لها دنيا الخطوب) ؟!

٤

هذا هو السؤال الذي كان يرهق عقلها وقلبها ، وهذا هو الامر العسير الذي كانت تتعب في البحث عن الحل الذي يجعل عسره يسرا .

ولسوء حظها فانها تركت هذه العقد تعمل عملها في نفسها ، فلم تسع الى استهداء اهل الهدى ، ولم تتصل بأهل الرأي وأصحاب الحكمة ، ولم تستشر ذوي الاختصاص من رجال الدين واطباء النفس ، وعلماء الاجتماع ، وهي لو فعلت ، لوجدت الكثير

من الحلول ، للكثير من مشاكلها المعقدة ، والتي زاد في تعقيدها انطواؤها على نفسها ، وغرقها في بحران الضلالة والتيه .

لماذا حملت سلمها بالعرض كما يقولون ؟ ان من المفروض بكل انسان ان يعلم قبل كل شيء انه جاء الى الحياة بدون ارادته ، وسيخرج منها بدون ارادته ، ولهذا فانه ليس من المعقول ان يكون مسؤولا عن خطوط سيرها في كل ما ترسمه له الاقدار ، ولكنه سيكون مسؤولا بلا شك ، وسيتحمل ــ هو وحده ــ نتائج مسؤوليته ، اذا لم يجابه هذه الحياة بالواقع ، ولم يتصد لها بالعزم ، ولم يقف منها موقف الرجل الذي يؤمن بان الحياة سبيل صراع دائم ، ستأتي بعدها حياة اخرى ، ينعم فيها المرء باستقرار دائم .

وتبعا لهذا يكون واجبا عليه محتما ، ان يدور مع الخطوب ، ويداور الحوادث ، حتى يقضي فترة الحياة وهو باسم لها ، مؤمن بالمصائر المكتوبة على ابنائها ، حسبه ان يكون واثقا بنفسه مطمئنا الى راحة ضميره ، يعرف حق غيره كما يعرف حق نفسه ، لا يتصدى للاقدار ، ولا يخالف خط السير الا بما يعود عليه وعلى أهله وولده ومجتمعه والانسانية جمعاء بالنفع والخير .

العقد التي تركبت في نفس مادلين ، جعلتها تنظر الى الحياة بمنظار التفاهة المطلقة ، وانه ليس لهذه الحياة اية قيمة ، وبدأ هذا المفهوم يعمل عمله في نفس مادلين منذ ذلك اليوم الذي قررت ان تنطلق فيه من الاسار الذي فرضته على نفسها اكراما لابنتها كلير ، منذ ذلك اليوم الذي ذهبت به الى محل الخياط الشهير فيكتور لوبلان ، وتعرفت هناك على فرانسوا مارتين ، منذ ذلك اليوم بدأ عندها هذا المفهوم وراح يتطور ويشتد ، يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر ، حتى بلغ بها الامر انها اعتقدت وترسخ عندها هذا الاعتقاد ، بأن من الخير كل الخير لابنتها ان لا تحيا هذه الحياة التافهة ، لانه ليس فيها شيء يستحق هذا التعب والجهد والارهاق .

وما ان بلغ هذا الشعور قمة السيطرة عليها سيطرة تامة ،

حتى صممت على تخليص ابنتها من مستقبل وحياة ليس فيها الا ما يؤلم ويضني ، وفي ليلة من ليالي سهراتها الحمراء ، وعقب ما كرعته من كؤوس الخمر المميتة ، عادت الى بيتها ، وقد سيطر عليها حبها لابنتها ، وخشيتها عليها من مستقبلها ، فأقدمت في هداة الليل ، غير هيابة ولا وجلة ، فانتزعتها من سريرها وهي نائمة ، وحملتها الى الغسالة الكهربائية ، وألقتها في مياهها ، حيث خفقت فيها خفقتين او ثلاثا ، أنتهت بها حياتها ، امام عيني امها التي كانت تبتسم ابتسامة الم وسرور ، الم على فراقها لانها امها ، وسرور لانها حالت بينها وبين حياة الشقاء ـ كما لو كانت تؤمن وتعتقد ـ .

***

وهكذا استمعت المحكمة الى نهاية هذا التقرير ، كما استمع له الجمهور ، وحينما كانت مادلين رينو وجوزفين دامار مستغرقتين في بكاء لا ينقطع دمعه ، كان يشاركهما جمع غفير من الرجال والنساء بالبكاء الصامت والحزن المرير .

ورفع رئيس المحكمة رأسه وسأل مادلين رينو فقال لها ما تقولين يا مادلين بما اورده هذا التقرير ؟

قالت مادلين : لقد نطق بالحق والواقع وليس لي ما أزيد عليه .

الرئيس : انت اذن قتلت ابنتك .

مادلين : نعم .. وهي اعز عليّ من نفسي .

وقال الرئيس لجوزفين دامار : وانت ماذا تقولين يا جوزفين ؟

جوزفين لا أقول شيئا .

الرئيس : هل انت قتلت الطفلة ام مادلين ؟

جوزفين : انا لم اقتلها .

الرئيس : ولم كنت تتهمين نفسك؟

جوزفين : لانني يئست من الحياة بعد ما رأيت ان آمالي فيها قد تحطمت فوددت ان اضع حدا لحياتي عن طريق الاعتراف بجريمة لم ارتكبها .

سمع الرئيس بقية الاقوال ، وانهى ضبط المحاكمة ، ثم اختلى اعضاء المحكمة ثلاثين دقيقة خرجوا بعدها واعلن الرئيس قراره . فأطلق سراح جوزفين دامار على الفور ، وحكم بالسجن عشرين سنة على مادلين رينو ، وبالنظر للاسباب المخففة قد خفض الحكم الى سبع سنوات ، ثم الى ثلاث ، لاسباب اعترافها بالجرم وحيلولتها دون الحكم على المتهمة البريئة جوزفين دامار .

***

خرج الناس من قاعة المحكمة صامتين سادرين ، وفي الوقت الذي خرج فيه فرانسوا مارتين يتأبط ذراع زوجته جوزفين دامار ، كانت سيارة السجن السوداء تقل السيدة مادلين رينو الى سجنها المكتوب لتقضي فيه مدة حكمها .

ولم تكن وحدها تسير السيارة ، بل أبى الا أن يرافقها الى السجن الصحفي جورج سارتر ، حيث كان يواسيها ويخفف من آلامها النفسية ، وقد دخل معها بما يتمتع به من امتيازات صحفية الى غرفة سجنها ، وبعد ان اطمأن عليها وعلى اقامتها ، ودعها بعد ان وعدها بأن لا ينقطع عنها ، وان يسهر على راحتها وسعادتها .

***

مضت السنوات الثلاث كما تمضي كل السنين ، وفي يوم انتهاء مدة الحكم الصادر عليها ، خرجت من باب السجن الى سيارة صديقها الاثيل الصحفي جورج سارتر ، الذي لم ينقطع عن زيارتها يوما واحدا .. واتجها رأسا الى كنيسة سانت لويس حيث عقدا فيها اكليل الزواج ودخلا الى الحياة مرة اخرى من باب الاماني والآمال .

الفهرس

		رقم الصفحة
الفصل الاول	: في الحي اللاتيني	٧
الفصل الثاني	: الطبيب العاشق	١٧
الفصل الثالث	: تحقيق صحفي	٣١
الفصل الرابع	: نحو الهاوية	٤٣
الفصل الخامس	: امرأة غامضة	٥٧
الفصل السادس	: وداعا ايها السجن	٧١
الفصل السابع	: بين الحب والحيرة	٨٩
الفصل الثامن	: امرأة وراء القضبان	١٠٥
الفصل التاسع	: في محكمة الجنايات	١١٥
الفصل العاشر	: الغموض الرهيب	١٢٩
الفصل الحادي عشر	: الدرب الشائك	١٤٥
الفصل الثاني عشر	: يقظة الضمير	١٦١

للمؤلف

١ ـ الانقلاب السوري

سجل دقيق لوقائع اول انقلاب عسكري شهدته سورية
صدر عام ١٩٤٩ عن دار النوري بدمشق
ـ نفد ـ

٢ ـ بائسة ...

قصة انسانية تحليلية
صدرت عام ١٩٥٢ عن دار النوري بدمشق
ـ نفد ـ

٣ ـ كيف غالبت الموت ؟

عشر قصص عن الطيران من صميم الواقع
صدرت عام ١٩٦١ عن دار الفتح بدمشق
ـ نفد ـ

٤ ـ اشتراكيتهم وإسلامنا

بحث علمي مبسط عن الاشتراكيات الشيوعية والثورية والدمقراطية ، مع بحث ختامي عن العدالة الاجتماعية في الاسلام .
الطبعة الثانية صدرت عام ١٩٦٦
عن مؤسسة الانتاج الطباعي في بيروت

٥ ـ الدرب الشائك

قصة اجتماعية من الحي اللاتيني في باريس
صدرت عام ١٩٦٦ عن دار الفتح للطباعة والنشر في بيروت

مطبعة شركة الطبع والنشر اللبنانية ـ بيروت

الثمن : ٢٥٠ فلساً او مليماً